المرحلة : الثالثة　　المادة : تاريخ الوطن العربي المعاصر

الفصل : الخامس　　عدد الساعات: ٢

مفردات المنهج

الأوضاع السياسية في الوطن العربي قبيل الحرب العالمية الأولى

١. المؤتمر العربي الأول ١٩١٣

٢. ميثاق دمشق والمراسلات العربية – البريطانية – الاتفاقيات والمساومات حول مستقبل المشرق العربي(سايكس بيكو – بلفور)

٣. الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ (أسبابها – نتائجها)

٤. حكومة دمشق العربية ١٩١٨-١٩٢٠ – المقاومة العربية للتجزئة والانتداب

٥. ثورة عام ١٩١٩ في مصر وعواملها

٦. المقاومة في سوريا للاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٠

٧. الثورة الفلسطينية عام ١٩٢٠ى-١٩٤٨

٨. التطورات السياسية في مصر تصريحات شباط ١٩٢٢ ، دستور عام ١٩٢٣ وزارة سعد زغلول الاحزاب السياسية ، معاهدة ١٩٣٦

٩. التطورات السياسية في سوريا .

أ- سياسة التجزئة الفرنسية .

ب- ظهور الجمعية التاسيسية واصدار الدستور عام ١٩٢٥

ت- معاهدة ١٩٣٦

١٠. التطورات السياسية في لبنان (اعلان دولة لبنان الكبير ، السياسة الفرنسية في لبنان ، معاهدة ١٩٣٦ .

١١. الثورة في الجزائر عام ١٩٥٤

١٢. الحركة الوطنية في ليبيا ، ثورة المختار

المراجع المعتمدة :

١- كتاب الوطن العربي الحديث والمعاصر / د. خليل ابراهيم أحمد.

٢- تاريخ الحركة العربية / د. سليمان موسى

كلية التربية الاساسية

قسم التاريخ

المرحلة الثانية

تاريخ

الوطن العربي الحديث

((١٢٥٨ - ١٩١٦ م))

الفصل الأول

م.د حسن عاول ناجي

الفصل الأول :- سقوط الدولة العباسية وظهور الكيانات السياسية في الشرق العربي:-

شهد المشرق العربي خلال منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تطورات سياسية مهمة ، وتبدو تلك التطورات واضحة على المؤسسة السياسية الرئيسية في الوطن العربي والتي بقيت لفترة طويلة في صورتها الشكلية فقط، وبالنسبة للمؤسسة السياسية العباسية فيمكن تقويم الصورة الشكلية لها من خلال اعتبارين وهما:-١- إن المؤسسة السياسية للدولة العباسية هي الأكثر نفوذا والأطول عمرا بين المؤسسات السياسية التي شهدها الوطن العربي. ٢- إن الكيان السياسي للدولة العباسية ضم معظم أنحاء الوطن العربي حيث تأسست لها كيانات محلية تستمد قوتها وبقائها من خلال ولائها للخلافة العباسية.

مارست الخلافة العباسية نفوذ وسلطة قوية على معظم أنحاء الدولة خلال العصر العباسي الأول(١٣٢هـ-٢٤٧م)، ثم تعرضت الدولة العباسية إلى سيطرة البويهيين والسلاجقة على مقاليد الدولة والتي تعرضت إلى سلب حقوقها وواجباتها السياسية مما جعل المؤسسة السياسية العربية أسيرة لتوجه القوى الأجنبية في بلاد الشرق ، ومن هذه القوى المغول الذين قاموا باجتياح حدود المشرق الإسلامي.

م - التوسع المغولي في الشام والعراق :-

المغول هم قبائل بدوية كانت تستوطن المنطقة الهضبية والتي تسمى بهضبة منغوليا والتي تميز مناخها بكونه مناخا قاريا قاسيا لذلك عاش المغول على شكل قبائل متنقلة ذات حضارة محدودة، ثم توجهوا على شكل موجات غازية احتلت أجزاء من الصين والهند وإيران ثم اتجهت نحو الدولة العربية الإسلامية مستغلين حالة الضعف والانقسام فيها.

توجه المغول نحو الشام التي كان يحكمها المماليك فحدثت معركة بين الطرفين عرفت بمعركة عين جالوت سنة(٦٥٨هـ-١٢٦٠م)،في فلسطين والتي انتهت بطرد المغول من الشام وأصبحت الدولة المملوكية كيانا سياسيا ضم أقاليم عديدة من الوطن العربي شملت الشام والجزيرة واليمن إضافة إلى مصر،كما أصبحت المؤسسة السياسية لهذا الكيان حامية الحرمين الشريفين في مكة والمدينة وتعززت علاقات المماليك التجارية بين الشرق والغرب.

أما العراق فقد خضع للإمبراطورية التي أسسها هولاكو وتعاقب على حكم بغداد حكام الدولة الايلخانية فأصبحت بذلك بغداد ولاية تابعة لحكومة المغول في إيران،ولم يكن للدولة الايلخانية مقر ثابت بسبب تنقل الايلخان وتجوالهم ففي عهد هولاكو كانت أطراف بحيرة رومية شمال غرب أذربيجان مقرا لإقامته،أما مراكز الدولة الإيلخانية هي مراغة التي اشتهرت بمرصدها الشهير والمركز الثاني هو خوي التي اشتهرت بمعابدها، أما قصور الايلخان فقد انتشرت في مدينة الاداغ.

حكم العراق خلال العهد المغولي عدد من المغول بعضهم عاث في الأرض فسادا وساد فيها الظلم ومن هؤلاء الحكام سعد الدولة اليهودي صاحب ديوان المماليك العراقية في عهد الأرغون(١٢٨٤-١٢٩١م) الذي كانت سيرته السيئة مضرب الأمثال فكانت معاناة الأهالي من تصرفاته وتصرفات العديد من أفراد أسرته ممن اسند إليهم مهمة الإشراف على الدواوين في بغداد سببا بقتله مع أعوانه وإخوانه،وبالمقابل كان هناك حكاما ذكرهم المؤرخون بالرضا واشادو بحسن سيرته وإصلاحاته ومن هؤلاء السلاطين محمود غازات (١٢٩٥-١٣٠٤).

انتهت أسرة هولاكو والعهد الايلخاني بوفاة أبي سعد بهادر حيث انقسمت الدولة الى أسرتين هما جوبان وحسن جلائر وكان مصير العراق أن يصبح مركزا للدولة الجلائرية.

م - الدولة الجلائرية:-

أصبح العراق تحت سيطرة الدولة الجلائرية سنة (١٣٧٤) بوصفهم ابرز القوى المتنافسة في نهاية عهد الدولة الايلخانية ،والجلائريون هم أقوام تركية انتسبت إلى المغول في وقت متأخر واتخذوا من بغداد عاصمة لهم وكان زعيمهم هو حسن جلائر، وتمكنوا بعد اقل من (١٥) عاما من التاريخ المذكور من السيطرة على أذربيجان وتبريز وضم الموصل،وعلى مدى أكثر من ثلاثين عاما تلت سنة ١٣٧٤ واجه الحكام الجلائريون عدد من المشاكل أهمها:- ١- الصراع مع المظفرين(آل المظفر) وهي إحدى الأسر الحاكمة في شرق إيران(١٣١٣-١٣٩٣). ٢-الصراع مع التركمان(القرة قوينلو)في جهات كبيرة من بحيرة وان والموصل.٣- الصراع مع الغزو التيموري بقيادة تيمورلنك في عهد السلطان احمد الجلائري (١٣٨٢-١٤١٠) والذي تمكن خلالها تيمورلنك من احتلال بغداد مرتين الأولى سنة (١٣٩٣) والثانية سنة(١٤٠٠) وفي كلا الحادثين لم يستطع السلطان احمد الجلائري من مواجهة الغزو التيموري فالتجا في المرة الأولى إلى المماليك في عهد السلطان برقوق المملوكي في حين التجا في المرة الثانية إلى السلطان العثماني بايزيد والذي تعاون بدوره مع قرة يوسف التركماني لتوحيد الجهود ضد تيمورلنك وكذلك لسحب تيمورلنك لخوض معركة معه في الأناضول،وعلى العموم فقد أضعفت أحداث الغزو التيموري الحكم الجلائري فحدث تحالف بين دولة القرة قوينلو في عهد أميرهم قرة يوسف وبين السلطان احمد الجلائري ولكن بوفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ انفرط عقد التحالف بينهما وانتهى الصراع بأسر السلطان احمد الجلائري ثم قتله وضم ممتلكاته بغداد وتبريز.

م - دولة القرة قوينلو (١٤١١ - ١٤٦٨) :-

وهو اسم اشتهرت به عشيرة تركمانية وتعني الخروف الأسود ويسمون أحيانا البارانيين،وبسبب الصراع الأسري بين أمراء دولة القرة قوينلو عانت بغداد في عهودهم ويلات شديدة وتعرضت لحصارات عديدة ،ومن هذه الحصارات الحصار الأول قام به الشاه قرة يوسف سنة (١٤١٨) كان الهدف منه معاقبة الشاه محمد بن قرة يوسف بسبب انقطاعه عن إرسال الأموال إلى تبريز،وفي سنة (١٤٢٠) حدث الحصار الثاني عندما حاول الأميران اسبان وجيهان شاه انتزاع بغداد من شقيقيهما بعد أن بلغهما نبا وفاة والدهما الشاه قرة يوسف ،وقد تمكن اسبان من السيطرة على بغداد سنة (١٤٣٢) بعد فرار الشاه محمد من بغداد والذي اقتنع بحكم الموصل وبمساعدة عرب الجزيرة من آل مدينة الطائي.

تعرضت بغداد للحصار الثالث في سنة (١٤٤٥) قام به جيهان شاه عندما بلغه نبا وفاة شقيقه أسبان ،وقد استغرق هذا الحصار ستة أشهر انتهى بدخول الشاه جيهان إلى بغداد والتي حكمها ولدا جيهان محمد ميرزا وبيير بوداق الذي حكم حتى سنة (١٤٦٧) حيث لم يستمر طويلا في الحكم فقد اختلف مع والده جيهان بسبب محاولة بيير بوداق توسيع دائرة نفوذه في إقليم فارس وكان موقف الشاه جيهان سلبي من تلك المحاولات الأمر الذي دفع بيير بوداق الى الانقطاع عن إرسال الأموال ولمدة ثلاث سنوات وعلى اثر ذلك توجه جيهان شاه بعساكره إلى بغداد وحاصرها حصارا شديدا وهو الحصار الرابع خلال نصف قرن الذي انتهى باستسلام بيير بوداق ثم لقي حتفه واحتلت عساكر جيهان شاه بغداد سنة (١٤٦٧).

أما العلاقات السياسية لدولة القرة قوينلو مع الكيانات السياسية المجاورة لها ،فبالنسبة لعلاقاتها مع العثمانيين لا توجد إشارة إلى وجود علاقات سياسية بين الطرفين سوى تلك التي حدثت بين قرة يوسف والسلطان احمد الجلائري أثناء الغزو التيموري لبغداد سنة (١٤٠٠)،أما الدولة المملوكية(المماليك) فإنها على الرغم من مجاورتها لدولة القرة قوينلو فإنها كانت حذرة من الدخول باحتكاك مع دولة القرة قوينلو بسبب الطبيعة البدائية لهذه القوى ومظاهر البربرية في سلوك أمرائها،وقد بقي المماليك على سياستهم هذه على الرغم من قيام أمراء القرة قوينلو بالتحرش بحدود الدولة المملوكية وقيام البعض بإعلان البيعة للسلطان المملوكي إضافة إلى محاولة جيهان شاه بالتحالف معهم إلا أن المماليك لم يظهروا اهتماما بذلك فكان إيذانا بزوال حكم دولة القرة قوينلو سنة (١٤٦٨) وظهرت دولة الاق قوينلو على مسرح الأحداث.

م - دولة الاق قوينلو (١٤٦٨ - ١٥٠٨) :-

من العشائر التركمانية استوطنت في جنوب الأناضول وتعني الخروف الأبيض ويسمون أحيانا البايندرية،استطاعت أن تقيم كيانا سياسيا صغيرا مجاورا للدولة المملوكية في الشرق الإسلامي حوالي الثلث الأول من القرن الخامس عشر،وقد لعب احد أمرائها الأقوياء المدعو حسن الطويل (١٤٦٩_ ١٤٧٨) دورا ملحوظا في العلاقات السياسية بين مراكز القوى في المنطقة،فقبل توليه السلطة كانت له علاقات حسنة مع دولة المماليك في مصر والشام وذلك من اجل الضغط على العثمانيين،ثم عقد تحالفات مع البنادقة وحكام مملكة طرابزون الأرمينية فضلا عن استغلاله موقع الإمارة ومركزها المتوسط على الطرق التجارية البرية التي تربط الشرق بالغرب لزيادة نفوذه وإقامة كيان سياسي كبير ونجح في ذلك فدخل في منافسة مع حكام القرة قوينلو وخضعت له فارس سنة (١٤٦٧) والعراق سنة (١٤٦٨)فضلا عن أرمينيا وشرق الأناضول وأصبحت تبريز مركزا لدولة الاق قوينلو بدلا من ديار بكر التي اتخذوها مركزا لهم في بادئ الأمر.

نسب للسلطان حسن الطويل(قانون نامه حسن بيك) أي دستور حسن بيك الذي اصدر للفصل في الشكوى والخصومات التي تقع بين الحكام والرعية فيما يتعلق بالضرائب والأمور الأخرى، توفي السلطان حسن الطويل سنة (١٤٧٨)فتولى الحكم بعده ابنه خليل ميرزا حاكم شيراز سابقا،الذي أثار توليه العرش ردود فعل سلبية من قبل أبناء حسن وأقاربه ويقال إن السبب في ذلك هو ضعف السلطان خليل وفساد إدارته وسوء أخلاقه، وعلى إثر ذلك اتفق أمراء الاق قوينلو مع يعقوب بيك أخ خليل بيك بهدف إقصاء الأخير عن السلطة وبايعوا يعقوب من اجل تحقيق ذلك الهدف،فدارت معركة بين الطرفين على نهر حوى في اذربيجان عرفت بمعركة (ميرند) التي حدثت في سنة (١٤٧٨) كان النصر حليف السلطان خليل في بداية الأمر غير إن الموقف انقلب بعد ذلك لصالح يعقوب بيك عندما انضم إليه الأمير عثمان احد قادة السلطان خليل وانتهت المعركة بسقوط السلطان خليل قتيلا،فتوجه السلطان يعقوب بيك الى تبريز واستولى على مقاليد الأمور فيها وخضعت للسلطان الجديد أنحاء العراق وأذربيجان وأصفهان وفارس ويزد وكرمان حتى حدود خراسان.

لم تقتصر الصراعات التي تعرضت لها دولة الاق قوينلو بين أمرائها فقط وإنما تعرضت أيضا إلى تدخل من بعض الإمارات المحلية العربية التي لعبت دورا على الساحة خلال القرن الخامس عشر ومن هذه الإمارات إمارة ال فضل العربية الرحبة وإمارة المشعشعين في الكويت وفي الاحواز ويبدو ذلك التدخل واضحا عندما أجرى السلطان حسن الطويل تغيرات مهمة على حكومة بغداد والتي شملت جميع الأمراء المتواطئين مع الأمير احمد اوغلو الذي قام بتمرد ضد السلطة وفي خضم ذلك الصراع دخل المشعشعون طرفا في تلك الصراعات وكانوا يدعمون بعض الأمراء ضد أمراء آخرين ، وقد بقي المشعشعون يراقبون الأوضاع عن كثب في عهد

السلطان حسن الطويل وبعد وفاته واضطراب الدولة في عهد السلطان خليل قاموا بمهاجمة المناطق القريبة من بغداد.

أما بالنسبة لعلاقات ألاق قوينلو مع الإمارات المجاورة لها فكانت علاقتها مع المماليك متوترة في عهد السلطان حسن الطويل ،ورغم توتر العلاقة بينهما فلم تحصل حوادث مهمة بين الطرفين بحكم التقاء المصالح السياسية للدولتين والتي كانت تهدف إلى مواجهة العثمانيين الذين تطورت قوتهم سريعا خلال القرن الخامس عشر ،ولكن بعد وفاة السلطان حسن الطويل وما أعقبه من صراع اسري على السلطة وجد المماليك الفرصة مؤاتية لمد نفوذهم وحدود دولتهم شمال ديار بكر وأراضي ألاق قوينلو فحدثت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة المماليك.

أما بالنسبة للعلاقات مع العثمانيين فقد ساءت كثيرا في عهد السلطان حسن الطويل بسبب محاولات حسن الطويل التوسع على حساب العثمانيين في منطقة قرمانيا في جنوب غرب الأناضول ،وبسبب تحالفه مع إمارة طرابزون المسيحية ومصاهرته لحكامها ،وأخيرا بسبب جهوده لتشكيل جبهة ضد العثمانيين مع إمارة طرابزون والبنادقة،الا إن السلطان محمد الثاني الملقب بـ (محمد الفاتح) تمكن من تحطيم الجبهة وذلك عندما قامت جيوشه بتدمير مملكة طرابزون المسيحية كما الحق محمد الفاتح الهزيمة بقوات حسن الطويل في تراجان (١٤٧٣)،ثم قام السلطان العثماني بتصفية قواعد البنادقة في أسيا الصغرى واليونان ،وبعد وفاة السلطان حسن الطويل شهدت العلاقات بين الدولتين الثمانية وألاق قوينلو انفراجا نسبيا وذلك من خلال مبادرة السلطان العثماني بإرسال هدايا وتهنئة إلى السلطان يعقوب بيك عندما ارتقى إلى العرش ويبدو إن الهدف من هذه المبادرة هو الوقوف في جبهة واحدة ضد أطماع المماليك ،وأخيرا لا بد إن نذكر إن بلاط ألاق قوينلو كان يحتوي على الكثير من دلالات القوة والسلطان وكان أمرائها يهتمون كثيرا بالعمارة وخاصة البلاط والقصور والرسوم وأمور أخرى وخصوصا في عهد السلطان حسن الطويل والسلطان يعقوب ابن حسن الطويل.

م - الاحتلال الصفوي للعراق :-

ظهر الصفويون في إيران ويرجع تاريخهم إلى مدينة اردبيل وكان شيخهم هو الشيخ إسحاق صفي الدين بن جبرائيل المنتسب بالنسب العلوي وكان يعتبر وليا من الأولياء وتعود المنزلة التي اختص بها إلى الاهتمام الكبير الذي لاقاه من قبل رشيد الدين وزير الدولة الايلخانية في فارس ،كانت طريقته التي عرفت بالصفوية طريقة صوفية في نشأتها مثل الطرق الصوفية التي نشأت في أنحاء المشرق الإسلامي خلال عهود الاضطراب والقلق السياسي.

وفي عهد السلطان سليم الاول الذي تولى الحكم سنة ١٥١٢ ، على اثر خلع ابيه بايزيد الثاني (١٤٨١ — ١٥١٢) حدث انقلاب في ستراتيجية الدولة العثمانية . اذ توقف زحفها على حساب الغرب الاوربي اوكاد واتجهت نحو الوطن العربي .

ومهما تعددت الاراء واختلفت في تعليل هذه الظاهرة فان هناك سببين مهمين اولهما ظهور الدولة الصفوية في ايران . وثانيهما الغزو الاوربي للوطن العربي .

يعتقد فريق من المؤرخين وفي مقدمتهم المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي Arnold Toynbee ان الاحداث التي وقعت في الشرق اوائل القرن السادس عشر هي التي جذبت الدولة العثمانية الى الوطن العربي . ومن ابرز هذه الاحداث ظهور الدولة الصفوية في ايران . ويضيف ان الغزو العثماني للاقطار العربية ماهو الا مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بقصد السيطرة على منطقة الشرق الادنى . لذلك لابد من ذكر نبذة مختصرة عن نشأة الدولة الصفوية ليسهل علينا فهم دوافعها التوسعية واسباب صراعها مع الدولة العثمانية بعد ان تاخمتها.

ظهور الدولة الصفوية في ايران :

نشأت الدولة الصفوية في بلاد فارس اولاً كحركة دينية وسط الاضطراب الذي عم ايران عقب سقوط الدولة المغولية الاولى . ويدعي الصفويون انهم ينتسبون إلى الشيخ صفي الدين اسحاق المتوفى سنة ١٣٢٤ الذي يرجع بنسبه إلى الامام موسى الكاظم الا ان الدراسات الحديثة اسقطت هذا الادعاء ، حيث لم ترد اية اشارة في المصادر والآثار المعتمدة تدل على رجوع نسب هذه الاسرة إلى العلويين بشكل صريح .

كانت هذه الحركة في نشأتها طريقة صوفية كبقية الطرق الصوفية التي شهدها الشرق الاسلامي في اذربيجان حيث اقام صفي الدين . وقد

انتقلت المشيخة الى خوجه علي بن حيدر الذي اتصل بتيمورلنك خلال غزوه للمنطقة فاوقف عليه اردبيل له ولاتباعه . لذلك تمركزت الحركة هناك ثم اخذت في الانتشار . وحين انتقلت مشيخة الحركة إلى جنيد سعى لتحويلها إلى حركة سياسية متخذاً القوة اداة لنشرها . وقد ارتبط جنيد باواصر المصاهرة مع اسرة اوزون حسن مؤسس الامارة الاق قوينلية وهي امارة تركمانية ضمت العراق واذربيجان بين سنتي (١٤٦٧ — ١٥٠٨) فاكتسب بهذا الزواج قوة كبيرة واصبح للحركة الصفوية ابعاداً سياسية واضحة .

اما حفيده حيدر فيعد منظم قوات الصفويين العسكرية وقد اتخذ لاتباعه لباساً مميزاً للرأس وهو عبارة عن قلنسوة حمراء لهذا عرف اتباعه باسم القزلباش بمعنى : ذوى الرؤوس الحمراء . وفي سنة ١٤٨٨ قتل حيدر في احدى المعارك المحلية فتولى قيادة الحركة الصفوية الشيخ اسماعيل بن حيدر الذي استفاد من ضعف الامارة الاق قوينلية في اواخر ايامها ليفرض سيطرته على اذربيجان ويدخل عاصمتها تبريز ويجعلها عاصمة له واتخذ لنفسه لقب الشاه وسط مراسيم مفخمة وقد حكم ايران من ١٥٠٠ حتى ١٥٢٤ .

أستخدم الشاه اسماعيل الصفوي الدين والتصوف وسيلة لفرض هيمنته على ايران واحتواء مسلميها جميعاً ولو ظاهرياً وذلك بانتهاجه سياسة دائنية مقيتة وحتى يخفي هدفه استند إلى بضعة مظاهر سطحية استحدثها في عصره او بعثها من جديد . من ذلك اتخاذه سب الخلفاء الراشدين الثلاثة الاول وسيلة لامتحان الايرانيين فمن يسمع السب منهم يجب عليه استناداً إلى اوامر الشاه اسماعيل ان يوافق على ذلك ويطلب المزيد منه . اما اذا امتنع السامع عن النطق قطعت رقبته . وقد ازداد عدد ضحاياه على عشرات الالوف من الناس . كما اكد على ضرورة المبالغة في الاحتفالات الدينية .

اصبح التقسيم المذهبي على اساس جغرافي بعد ان فرض الشاه اسماعيل وحدة المذهب في ايران بينما كان سابقاً على اساس اختلاف عقائدي ضمن الجماعات الاسلامية المختلفة ، لذا ففي الوقت الذي بدت ايران فيه موحدة، مذهبياً ، ولو من حيث المظهر ، تمزق شمل العالم الاسلامي حين باتت كل من الدولة الصفوية والدولة العثمانية تدعي احقيتها في تزعم المسلمين وتتستر وراء المذهب لتحقيق اهدافها التوسعية . الامر الذي اتاح المجال للمستعمرين البرتغاليين كي يركزوا اقدامهم في الخليج العربي ويسيطروا على سواحله ويتحكموا في منافذه كما سنرى .

تطلع الشاه اسماعيل إلى ماحوله فكان لابد ان يجذب العراق انظاره فهو مجال التوسع في الغرب . كما ان اوضاع العراق السياسية المتدهورة يومذاك كانت مشجعة للتوسع الصفوي ، والعراق إلى جانب هذا مجال اقتصادي ، ففي منطقة الجزيرة منه اراض زراعية جيدة ، فضلاً عن كونه مركزاً تجارياً مهماً لانه يطل على الخليج العربي . هذا بالاضافة إلى وجود العتبات والمراقد المقدسة فيه .

وعلى هذا الاساس قام الشاه اسماعيل بالسيطرة على العراق سنة ١٥٠٨ وبهذا اصبحت الدولة الصفوية متاخمة للدولة العثمانية . ولم تكن الحدود بين الدولتين مضبوطة بحيث تمنع الاشتباك ، كما كانت مناطق الحدود مأهولة بعناصر مختلفة تتذبذب في ولائها بين الدولتين . كما اخذ الشاه اسماعيل يعمل على اثارة العثمانيين بطرق شتى . فعلى سبيل المثال اصبحت بلاده ملجأ للفارين من وجه السلاطين العثمانيين . وكذلك عمد الشاه اسماعيل الى تشجيع انتشار اعوانه وانصاره في الاناضول .

تفاقم التوتر بين الدولتين الصفوية والعثمانية . واعلن السلطان سليم الاول نفسه حامياً للمسلمين وزعيما لهم واستحصل على فتوى تجيز له محاربة الصفويين وتقرر وجوب قتلهم ووضع خطة لذلك ، فيقتل كل

من كان معروفا بولائه للصفويين : داخل بلاده . واسس نمطا من الشرطة السرية . ارسل افرادها في شتى ارجاء الدولة العثمانية وطلب منهم اعداد جريدة باسماء جميع المؤيدين للشاه اسماعيل في بلاده . وقد اشار بعض المؤرخين الى انه قتل اعداد كبيرة منهم .

لم يكن الاختلاف المذهبي سببا للصراع والحرب بين الدولتين العثمانية والصفوية . كما يشير بعض المؤرخين . وانما يمكن ان نرد ذلك الى موافقة سياسة التعصب المذهبي للنوايا التوسعية لكل من الشاه اسماعيل والسلطان سليم . وليس ادل على ذلك من ان الشاه اسماعيل تعاون مع الدولة المملوكية في مصر والشام وامارة ذي القدر شمال بلاد الشام وملك جورجيا ضد الدولة العثمانية . وتبعد سياسة المحالفات هذه العامل المذهبي ، فالدولة المملوكية كانت تعد نفسها حامية الحرمين الشريفين ، كما ان ملك جورجيا كان مسيحياً . وكان هدف الشاه اسماعيل من سياسة المحالفات عزل الدولة العثمانية عن جاراتها والانفراد بها . ويقال ان السبب الذي ادى الى الصدام بين الدولتين هو تجاهل الشاه اسماعيل مناسبة اعتلاء السلطان سليم العرش ، حيث لم يقدم التهنئة المألوفة مما ولد رد فعل عنيف في نفس السلطان سليم وجعله يتحين الفرصة لاعلان الحرب على ايران . وقد يبدو هذا السبب ضعيفاً خاصة اذا ماعلمنا ان المسألة تتعلق بانقلاب ولاء الامراء في منطقة الحدود المشتركة . كما ان النتائج الحاسمة للصدام هي عودة اولئك الامراء للحضيرة العثمانية .

اعد السلطان سليم جيشاً قوياً لمحاربة الشاه اسماعيل والقضاء على دولته وتولى قيادة هذا الجيش بنفسه . واتجه في ربيع سنة ١٥١٤م صوب الشرق ، وكانت خطة الشاه اسماعيل جره الى داخل الاراضي الايرانية بعد ان دمر واحرق كل المناطق التي سيمر منها الجيش العثماني . واحتفظ بقواته الرئيسة للدفاع عن العاصمة . وفي ٢٢ آب سنة ١٥١٤ وعند وادي جالديران قرب

منطقة جبلية تقع على الحدود الغربية لايران التحم الجيشان في معركة
معركة جالديران حيث استطاع السلطان سليم احتلال مدينة
الدولة الصفوية . ولم يشأ السلطان سليم التغلغل داخل ايران
تموينية واخرى ناجمة عن امتناع قواته مواصلة الغزو فقفل
بلاده . اما الشاه اسماعيل فقد جرح في كتفه ثم انقذه احد اتباعه
دركزين في شمال همدان . ومما هو جدير بالذكر ان جرح الشاه
المعركة كان عاملا مساعداً في ترجيح كفة الحرب لصالح
بالاضافة الى تفوق سلاح المدفعية العثمانية . وقيل ان خسارة
بلغت خمسة الاف شخص . وعندما علم الشاه اسماعيل بمغادرة
لتبريز عاد اليها ثانية ثم باشر في اعادة تنظيم جيشه ودولته .
ان الصراع العثماني - الفارسي لم يحسم بعد معركة جالديران .
كان الموقف العسكري كما يشير توينبي ، مائعاً واكداً اذ لم يؤد
انهيار احدى الدولتين بل اتضح لهما ان سقوط احداهما سقوطا مباشراً
يتعذر للاباد من اللجوء الى وسيلة جديدة . الا وهي محاولة احدى
تين الكبيرتين قلب ميزان القوى لصالحها بنقل الصراع الى خارج ايران
الاناضول ، وان ابعد هذا الصراع لنفسه مجالا في المناطق الواقعة بينهما
لم تكن تلك المناطق سوى الاقطار العربية .

الغزو الاستعماري الاوربي للوطن العربي :

شهدت بداية العصور الحديثة في القرنين الخامس عشر والسادس
حركة مهمة للتوسع الاوربي شملت مختلف ارجاء الكرة الارضية
وتمثلت فتح النشاط الاقتصادي في اواخر القرن الخامس عشر لاوربا افاقاً جديدة
للتجارة والرخاء فاندفع الاوربيون بحماس كبير يجوبون بحار العالم ومحيطاته
بحثاً عن طرق جديدة توصلهم الى الشرق . هذا بالاضافة الى رغبتهم
بالحصول على التوابل . وكان البرتغاليون والاسبان في مقدمة القوى الاوربية

التي تحملت عبء حركة الاستكشافات الجغرافية . اذ كانت هاتان الفئتان في اشتباك مزمن مع العرب وخاصة بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ وطرد العرب من الاندلس والرغبة في ملاحقتهم حتى شمال افريقيا ، والعمل على تحطيم التجارة العربية في البحر المتوسط والمحيط الهندي والحصول على مواقع ستراتيجية في هذه المناطق تساعد اساطيل الدول الغازية على تحقيق اهدافهما الاستعمارية .

هذا وقد تركزت نقاط الصدام بين المستعمرين الاوربيين والعرب منذ منتصف القرن الخامس عشر في منطقتين حيويتين الاولى في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الافريقي المتمثل بالبحر المتوسط والمحيط الاطلسي والثانية في المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالبحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي .

١ الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى :

تطلع البرتغاليون الى اقطار المغرب الاقصى وعملوا على تطويقها واحتلال موانيها المطلة على البحر المتوسط . وقد ابدى ملك البرتغال جوان الاول (١٣٨٥ — ١٤٣٣)م اهتماماً كبيراً بالبحرية والاساطيل لاحتلال الموانيء والمراكز التي تسيطر على الطرق التجارية وانتهز فرصة الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي الذي كانت تعيشه اقطار المغرب العربي في اعقاب سقوط دولة الموحدين سنة ١٢٧٥م ظهور قوى متنافسة فيما بينها على السلطة كالمرينيين (١٢٦٩ — ١٤٢٠م)، والوطاسيين (١٤٢٠ — ١٥١٠) م وغيرهما . فهاجم سبته في آب ١٤١٥ م واستولى عليها في محاولة للسيطرة على الساحل الافريقي والشمالي . وقد بدأ البرتغاليون بنقل الذهب والمنتجات الزراعية من افريقيا بحراً الى لشبونة ونافسوا بذلك طرق القوافل المارة بالصحراء . وقد سعى المرينيون الذين ورثوا الموحدين في جنوب مراكش منذ منتصف القرن الثالث عشر الى استعادة سبته ، حين هاجمها السلطان ابو سعيد المريني الا ان البرتغاليين احبطوا هذه المحاولة ، بل وجربوا

احتلال طنجة عندما ارسل الملك ادوارد الذي خلف اباه خوان الاول سنة ١٤٣٧م حملة بقيادة اخويه دون فرناندو ودون هنرى ، اتجهت نحو طنجة لكن سكانها دافعوا عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً ، كما ان السلطان عبد الحق بن ابي سعيد المريني ارسل الى المدينة المحاصرة امدادات كبيرة افشلت الحصار ، واضطرت البرتغاليين الى الانسحاب نحو سبته .

ثم لحقت الجيوش المغربية بالقوات البرتغالية وطوقتها واسرت الامير دون فرناندو وعدد كبير من اعوانه . وقد اشترط المغاربة مقابل اطلاق سراح الامير انسحاب البرتغاليين من سبته ، ولكن ملك البرتغال رفض العرض وترك اخاه يموت في الأسر .

تولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس سنة (١٤٥٣) فاتبع سياسة اسلافه الذين قصدوا السيطرة على اقطار المغرب العربي فاتجهت انظاره نحو ميناء القصر الصغير او قصر مصمودة الذي يقع بين سبتة وطنجة . وكان هدفه الرئيس احتلال طنجة . وفي تشرين الاول سنة ١٤٥٨ قاد حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و(٢٥) الف جندي واستولى على الميناء المذكور ، لكنه فشل في احتلال طنجة رغم محاولاته المتكررة بين سنتي (١٤٦٣ — ١٤٦٤م) .

عانى المغرب الاقصى في اعقاب مقتل السلطان عبد الحق المريني في ايار سنة ١٤٦٥م من ظاهرتي عدم الاستقرار السياسي والانقسام الداخلي . اذ نشب صراع على الحكم بين الشريف الادريسي محمد بن علي وبين قائد مدينة اصيلا محمد بن الشيخ الوطاسي . وامتد الصراع حتى سنة ١٤٧٢م بدخول الشيخ الوطاسي مدينة فاس مؤسساً الدولة الوطاسية . ولم يستطع الوطاسيون اعادة الوحدة السياسية للمغرب الاقصى فقد ظل المرينيون يحكمون مدينة مراكش التي اصبحت تسمى عاصمة الجنوب ، في حين اصبحت فاس عاصمة للقسم الشمالي في المغرب .

استطاع البرتغاليون وضع حمايتهم على ازمور سنة ١٤٦٨م وفي سنة ١٤٧١ احتلوا اصيلا وطنجة، والعرائش ولم تبق حرة الا تطوان التي ظهرت فيها حركة مقاومة ضد الغزو البرتغالي بقيادة المندرى قائد حاميتها. لما ظهرت في مدينة شفشاون سنة ١٤٧١ ، وتقع على ارتفاع الف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان ، حركة مقاومة قادها الشريف العلمي علي بن راشد .

امتاز الغزو البرتغالي بخصائص عديدة : ابرزها سيطرة الطابع العسكري والاكتفاء في بداية الامر بالمدن الساحلية . وكانت محاولة التوغل والتحكم في المناطق الداخلية اعتماداً على حصن جزيرة المليحة عند التقاء نهر اللكوس ونهر وادي المخازن اول محاولة في هذا الاتجاه .

لقد استمر البرتغاليون في توسعاتهم ، فاتجهوا نحو المغرب الاوسط واقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة ١٤٨٣م. وامتد نفوذهم إلى مدينة مراكش نفسها وسرعان ماظهرت الدولة السعدية في الجنوب الغربي من وادي السوس لتتحمل مهمة الدفاع عن البلاد وصد الغزو البرتغالي . وكانت بعض جهات الوادي المذكور وخاصة مدينة أغادير قد وقعت في ايدي البرتغاليين . ونجح سلاطين هذه الاسرة في تحرير كثير من موانىء مراكش حتى سنة ١٥٤١ هاجم السلطان محمد المهدي قلعة سانتاكروز في اقليم الريف البحراوي الحالي واستولى عليها وكان من نتيجة الانحسار البرتغالي هذا اخلاء جميع النقاط المحتلة في اقل من عشر سنين باستثناء سبتة وطنجة وما إن ك وخرج النفوذ السعدي من هذا الامر عظيماً فنودي بمحمّد المهدي سلطانا على مراكش كلها سنة ١٥٤٥م .

٢ - الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الاحمر :

لقد سبق البرتغاليون غيرهم من الاوربيين في المجال الاستعماري ، فبعد اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م تمكنوا من الوصول

الى المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالخليج العربي والبحر الأحمر والبحر العربي .. وقد احتلوا أغلب موانئ الخليج العربي المهمة وجزيرة وبنو قلاعاً دفاعية حصينة في هرمز ومسقط وعمان والقطايف وصحار والبحرين . وقد جاءوا الى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفناً كبيرة ذات اسلحة نارية فتاكة لذلك لم يكن لسكان المنطقة قبل بها فعجزوا عن مقاومتها في بادىء الامر . كما تميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني والعنصري .

كان لظهور البرتغاليين اوائل القرن السادس عشر أثر بعيد في تاريخ الخليج العربي واقطاره . فقد حولوا طرق التجارة عن مجراها التقليدي المار عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر فالبحر العربي والعراق فحرموا منطقة الخليج من مصدر اساس من مصادر ثروتها . وكانوا بالاضافة الى ذلك مدفوعين في حركة الاستكشافات والتوسع هذه بروح صليبية . وكانت غاياتهم واضحة ومحددة اولها الالتفاف حول العرب وشن الحرب عليهم وتوجيه ضربة قاضية للتجار العرب الذين كانوا يعملون منذ العصور الوسطى في نقل التجارة الشرقية من الهند والشرق الاقصى الى موانئ البحر الاحمر والخليج العربي حيث تتولى القوافل العربية نقلها من السويس عبر الاراضي المصرية الى القاهرة فالاسكندرية او من البصرة عبر العراق وبادية الشام الى موانئ البحر المتوسط لتتناقلها سفن المدن الايطالية ومنها جنوه والبندقية وتحملها الى اوربا .

كان الوطن العربي عندما بدأت هجمات البرتغاليين على البحر الاحمر في اوائل القرن السادس عشر يمر في دور انحلال سياسي وعسكري في حين كانت الدولة العثمانية باعتبارها دولة اسلامية قد وصلت الذروة في في قوتها السياسية والعسكرية . لذلك اتجهت انظار بعض العرب الى الدولة العثمانية كي تعينهم ضد الخطر البرتغالي . وعلى سبيل المثال اقترح شريف مكة سنة ١٥١٦م ارسال وفد الى السلطان سليم الاول طلباً للمساعدة العسكرية

غير ان السلطان المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠٠ – ١٥١٧م) منع سفر ذلك الوفد .

وسرعان ما ادرك المماليك خطر البرتغاليين الذي بات يهدد طرقهم التجارية المؤدية إلى الهند ، كما يهدد المراكز الاسلامية المقدسة في الجزيرة العربية خاصة بعد ان اتضحت اهداف البرتغاليين بالتقدم للاستيلاء على مصر والاماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين . ويتجلى ذلك في رغبة القائد البرتغالي الفونسو البوكيرك الذي كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة تحقق اهداف البرتغاليين الاستعمارية ورغم ان هذه الخطط كانت فوق طاقة البرتغال ولكن «يتجلى مغزاها في انها تظهر لنا ان اعظم قادة البرتغال لم ينس المثل الصليبية العليا» هذا ومن جهة اخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين كذلك من ان رد الفعل لغزوهم سوف لايقتصر على المقاومة العربية بل يشمل العثمانيين الذين «يحتمل ان يجيئوا لمساعدة ابناء دينهم ... في الخليج العربي » .. وعلى الرغم من اختلاف الاهداف السياسية لكل من العثمانيين والبرتغاليين في الاقطار العربية ، غير ان المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع اثناء الربع الاول من القرن السادس عشر. خاصة بعد فشل المماليك في محاولاتهم حماية حدودهم الجنوبية وابعاد الخطر البرتغالي اثناء السنوات الممتدة بين ١٥٠٦م و ١٥٠٩ من جهة ، واندحار الصفويين الفرس امام العثمانيين في معركة جالديران سنة ١٥١٤م من جهة أخرى . فعندما عرف القائد البرتغالي البوكيرك بهزيمة الصفويين كتب إلى الملك البرتغالي عمانوئيل الاول للسماح له بتجهيز الشاه اسماعيل بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويون من اضعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية .

لقد دفعت الضرورة السلطان المملوكي قانصوه الغوري بعد ان حطم البرتغاليون اسطوله في جاول Chaul سنة ١٥٠٩ مقرب ميناء ديوا إلى طلب المساعدة البحرية من السلطان العثماني . فأسرع العثمانيون في ارسال مواد

بناء السفن مع الفنيين المختصين إلى ميناء السويس في كانون الثاني ١٥١١م.
في هذه الاثناء لم تتوقف فعاليات البرتغاليين في المياه العربية، فرغم فشل القائد البوكيرك في احتلال عدن سنة ١٥١٣م بسبب المقاومة العربية الباسلة غير انه استطاع الدخول إلى البحر الاحمر واحتلال جزيرة قمران ،فأصبح ميناء جدة معرضاً لخطر مدفعية البرتغاليين . وعندما كمل بناء الاسطول المملوكي عين السلطان الغوري سليمان ريس، وهو قائد بحري عثماني رئيساً له فأبحر من السويس سنة ١٥١٥م مستهدفاً الدفاع عن البحر الاحمر وطرد البرتغاليين منه وابعاد خطرهم عن مكة المكرمة . واستطاع في سنة ١٥١٧م وسنة ١٥٢٥م احباط الهجمات البرتغالية على جدة. ونجح العثمانيون في اثناء هذه الفترة في التمركز في زبيد لكنهم فشلوا في تثبيت سيطرتهم على ميناء عدن ولم يتحقق لهم ذلك الا بعد احتلال العراق كما سنرى .

٣ – الغزو الاسباني للجزائر وطرابلس وتونس :

اتخذ الغزو الاسباني لاقطار المغرب العربي طابعاً دينياً صليبياً . اذ لم يقنع الاسبان بالقضاء على الوجود العربي في الاندلس وانما هدفوا الى مطاردة العرب في شمال افريقيا والوصول الى مصادر ثروتهم الاساسية في ذلك الوقت والمتمثلة باحتكار التجارة . وكان لظهور دولة اسبانيا الحديثة الموحدة اثر زواج فرديناند الخامس الكاثوليكي بالملكة ايزابيلا الاولى ملكة قشتاله الكاثوليكية اثر كبير في توجيه انظارهم نحو الشمال الافريقي . وقد بارك البابا اسكندر بورجيا الرابع نشاطات الاسبان في هذا المجال ونشر قراراً يعطي الولاية لملكي اسبانيا على الاراضي التي يبسطان السيطرة الاسبانية عليها.

لقد احتل الاسبان مرفأ عنابة سنة ١٤٦٣م ، وبعد حصار دام قرابة شهرين ومقاومة عنيفة من سكانها استطاع الاسبان احتلال مدينة المرسى الكبير غربي الجزائر في ايلول ١٥٠٥م وفي ١٧ آذار ١٥٠٩م احتل الاسبان مدينة وهران التي كانت تبعد عن المرسى الكبير ثمانية كيلومترات . كما

احتلوا في ٥ كانون الثاني سنة ١٥١٠م مدينة بجاية وبعد استيلائهم على جزيرة اسطفلة اصبحت مدينة الجزائر ضمن مدى مدفعيتهم فاحتلوها سنة ١٥١١م ولقد حاول الاسبان التوغل داخل الجزائر لكنهم فشلوا بعد المقاومة العنيفة التي ابداها السكان .

لم تقف مطامع الاسبان عند احتلالهم الجزائر ، بل امتدت لتشمل السواحل الشرقية . فاصطدام القائد الاسباني الكونت بدرو نفارو Pedro Navaro بمقاومة عرب السواحل التونسية الذين استفادوا من هزيمة اخوانهم عرب السواحل الجزائرية فهرعوا لتقوية الحصون واعداد العدة للمقاومة ولم يتركوا ثغرة يستطيع العدو النفاذ فيها الامر الذي اضطر بدرو نفارو الى اتباع ستراتيجية جديدة تقوم على احتلال طرابلس ومن ثم التقدم نحو الشمال ورغم مقاومة اهالي طرابلس ، فان الاسبان تمكنوا من اقتحام المدينة يوم ٢٥ تموز سنة ١٥١٠م بعد ان بلغت خسائرهم قرابة (٣٠٠) قتيل.

اتجه القائد الأسباني بدرو نفارو نحو الساحل الشمالي الغربي لاحتلال جزيرة جربة . ولكنه انسحب من امامها في اواخر تموز ١٥١٠م امام مقاومة اهاليها ، ولم يكن السكان في جزائر قرفنة اقل من اخوانهم اهالي جزيرة جربة استعدادا وتصميماً على المقاومة ، لذلك عاد بدرو نفارو الى مدينة بجاية في شباط سنة ١٥١١م .

وقد قاد الملك الاسباني شارلكان حملة بحرية يوم ٣١ أيار سنة ١٥٣٥م مؤلفة من (٣٠) الفا من المقاتلين الذين اصبحوا يوم ١٦ حزيران من السنة نفسها امام اطلال مدينة قرطاجنة وسواحل مدينة تونس . وفي ٢١ حزيران احتل الاسبان مدينة تونس واباحوا لجنودهم نهبها انتقاماً من اهلها الذين قاوموا الاحتلال .

فرض الاسبان على السلطان الحفصي الحسن بن محمد معاهدة مهينة كان من ابرز بنودها :

١ — اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الاسبانية .

٢ — ملكية الاسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادي وقرطاجنة ومدينتي عنابة والمهدية .

٣ — التزام (السلطان) بان لايدخل بلاده احد من مهاجري الاندلس .

وهكذا كان الاحتلال الاسباني للجزائر وطرابلس وتونس جزءاً من خطة صليبية اوربية استعمارية استهدفت تطويق العالم الاسلامي والوطن العربي وذلك لمحاولة اخضاع هذه المنطقة لنفوذهم والسعي لطمس معالم الحضارة العربية وقد استطاع الاسبان والبرتغاليون من توجيه ضربة شديدة الى اقتصاد الوطن العربي بعد ان وضعوا ايديهم على تجارته فاصبحوا قادرين على ايصال البضائع إلى اوربا باسعار تقل عن اسعار البضائع التي كانت تمر بالاقطار العربية وتدفع رسوماً كثيرة .

لم يكن العثمانيون ، وهم القوة الفتية في العالم الاسلامي آنذاك بغافلين عن تلك التطورات الخطيرة التي كانت تحرك العالم في مطلع القرن السادس عشر الامر الذي ادى إلى اندفاعهم في البحار ذات القيمة التجارية ولا سيما منها البحر المتوسط والمحيط الهندي ، وقد وجد السلطان سليم الاول ان على الدولة العثمانية إذا ما ارادت لممتلكاتها حفاظاً ان ترمي ثقلها في ذلك الصراع قبل فوات الاوان ، فاحتلال الوطن العربي يحقق لها عدة اهداف اهمها بسط السيطرة العثمانية على الحوض الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط ، وابعاد نفوذ البنادقة والجنويين عنه والحد من عبث القرصنة الاوربية وتأمين المواصلات البحرية للدولة العثمانية وتجارتها والوصول إلى الاماكن المقدسة وحمايتها من امكانات عبث البرتغاليين بعد ان ثبت اخفاق المماليك في هذه المهمة ، والسعي لاعادة الدولة الاسلامية إلى وحدتها السابقة وهيبتها الماضية وابعاد مطامع الاوربيين ومنعهم من تطويق الدولة العثمانية وسد منافذ التجارة عليها .

الان وبعد ان وضحنا العوامل والظروف التي جعلت الوطن العربي في القرن السادس عشر ميدانا جديداً لتوسع العثمانيين بعد ان بلغ توسعهم في اوربا مداه تقريباً . لابد ان نتابع مراحل سيطرتهم على الوطن العربي :

١ – السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن :

اشرنا فيما سبق الى ان المماليك كانوا يحكمون الجزء الغربي من المشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن وذلك منذ ان انتزع المماليك السلطة من الايوبيين في منتصف القرن الثالث عشر ، وبعد تغير طرق التجارة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة اوربا مع الشرق الى هذا الطريق الجديد بدلاً من مرورها بمصر ، عانت الدولة المملوكية تدهوراً في اوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . اذ فقد المماليك مورداً مالياً كبيراً كانوا يحصلون عليه من الضرائب المفروضة على البضائع التي كانت تنقلها القوافل عبر اراضيهم . وقد وقع عبء هذا التدهور الاقتصادي على عاتق الطبقات الشعبية الكادحة من اصحاب حرف ومزارعين ، اذ فرضت السلطة المملوكية الضرائب الفادحة التي كانت موضع استياء الشعب انذاك .

هذا في الوقت الذي اصبحت فيه النظم المملوكية في الادارة والجيش متخلفة عما كانت عليه النظم العثمانية . اذ كان المماليك يعتمدون نظام الفرسان اما العثمانيون فقد طوروا نظامهم العسكري فصار مؤلفاً من المشاة والمدفعية وهذا يفسر لنا سبب فشل المماليك في مواجهة الخطر البرتغالي خاصة اذا ما علمنا بان البرتغاليين امتلكوا اساطيل كبيرة لم يكن للمماليك قبل بها .

ان علاقة الدولة العثمانية المملوكية بقيت حتى اواخر القرن الخامس عشر علاقة مجاملة ومؤازرة ، عن طريق المراسلات وتبادل الوفود والهدايا. فعندما سقطت القسطنطينية بعث السلطان المملوكي حينذاك الاشرف اينال رسولاً الى السلطان محمد الفاتح يهنئه بهذا الانتصار . وقد اشرنا فيما سبق الى المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني لدولة المماليك حين تفاقم الخطر البرتغالي ولكن العثمانيين سرعان ما ادركوا بعد هزيمة

المماليك في معركة ديوا أوائل سنة ١٥٠٩ انهم القوة الوحيدة القادرة على انقاذ العالم الاسلامي ، واعتقدوا ان وضع دمشق والقاهرة ومكة والمدينة تحت سيطرتهم يتيح لهم امكانات اقتصادية وستراتيجية ومعنوية الاحد لها . وقد منحتهم الانتصارات التي احرزوها ضد ايران والقوى الاوربية ثقة عالية بانفسهم .

لقد اتجه العثمانيون بعد انتصارهم على الدولة الفارسية في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ للتوسع على حساب دولة المماليك في بلاد الشام ودخلت العلاقات المملوكية — العثمانية مرحلة سلبية وصلت الى حد الحرب بين الدولتين . اما السبب المباشر للاحتلال العثماني لبلاد الشام فكان تهديد الدولة العثمانية لحدود الدولة المملوكية وذلك عندما هاجمت امارة ذو القدر ، هي امارة تركمانية صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من الاناضول على الحدود الشامية وعاصمتها مرعش وقد تأسست في منتصف القرن الرابع عشر وكان اميرها متحالفاً مع المماليك معترفاً بتبعيتهم لهم ، وضمتها اليها بحجة عرقلتها سير جيوشها اثناء تقدمها لمحاربة الايرانيين متعاونة في ذلك مع دولة المماليك نفسها .

وهكذا قامت الحرب بين الدولتين ، وجرت معركتها الحاسمة على ارض سوريا في سهل (مرج دابق) في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ بالقرب من مدينة حلب . وكان السلطان سليم الاول يقود الجيش العثماني . اما الجيش المملوكي فكان بقيادة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠٠ — ١٥١٧) ووضح منذ اللحظة الاولى للمعركة أنه ليس ثمة تكافؤ بين الطرفين وخاصة في مجال التنظيم وادارة الحرب ونوعية الاسلحة المعتمدة . فالجيش المملوكي المرتكز على نظام الفروسية لم يستطيع مقاومة القوات العثمانية بتنظيمها المتقن واستعمالها المدفعية واساليب القتال الحديثة . كما كان لخيانة قائدين مملوكين للسلطان الغوري وهما خايربيك نائب حلب وجان بردى الغزالي نائب دمشق وتبادلهما الرسائل سراً مع السلطان سليم أثر كبير في هزيمة المماليك ومقتل السلطان

الغوري وانسحاب بقية القوات المملوكية المنهزمة الى مصر . وعلى حد تعبير ابن زنبل وهو مؤرخ معاصر «فانهم تركوا أثقالهم واموالهم واختاروا سلامة الروح» .

دخل السلطان سليم مدينة حلب في ٢٨ آب ١٥١٦ . وقد قرئت الخطبة في مسجد الملك الظاهر باسمه ووصفه الخطيب بانه «مالك الحرمين الشريفين» فنهض من مكانه وقال بل انا خادم الحرمين الشريفين . وقد بقي في حلب قرابة ثمانية عشر يوماً نظم فيها امور المدينة وما حولها كملاطية وبهنسي وعينتاب . ثم توجه نحو دمشق فوصلها في ٢٧ أيلول وظل فيها ما يقارب شهرين . وقد ابقى السلطان سليم النظام الاداري في الشام على ما كان عليه أيام المماليك . اذ وجد بلاد الشام مقسمة الى ست مقاطعات تعرف كل واحدة منها باسم (نيابة) وهي نيابات حلب ، ودمشق ، وحماة ، وطرابلس وصفد والكرك . وقد عين عليها بكوات من الاتراك العثمانيين الذين يثق بهم . الا انه اجرى تعديلاً لهذا الوضع قبل عودته الى العاصمة وذلك بان رفع من شأن بعض المدن وحولها الى مراكز ادارية رئيسة متخذاً الوحدة الادارية العثمانية وهي السنجق (اللواء) اساساً للتقسيم بدلاً من (النيابة) ، كما عين جان بردي الغزالي والياً على دمشق ومد نفوذه على القسم الجنوبي من سوريا وحتى العريش . وبذلك قسم بلاد الشام الى قطاعين كبيرين احدهما شمالي دمشق ويشرف عليه حاكم حلب وثانيهما جنوبها ويشرف عليه حاكم دمشق . وقد شمل التنظيم الاداري للسلطان سليم كذلك المدن الصغرى والبلدات الكبيرة فعين على كل واحدة منها (صوبا شيا) يمثل السلطة العسكرية ويحفظ الامن والنظام .

وكما اهتم السلطان بتركيز السلطة الادارية العسكرية فأنه اظهر عناية كبيرة في تنظيم الخدمة القضائية . وابقى على نظام الحسبة واوصى المحتسبين والبكوات والصوباشية بتنفيذ احكام القضاة وقراراتهم . ثم عين في كل سنجق مسؤولاً عن تنظيم امر المالية (دفتردار) .

هذا وقد وزع السلطان سليم الحاميات التركية على السناجق وسعى لتثبيت هذه الحاميات بربطها بارض البلاد عن طريق اقطاع الخيالة (السباهيين) تلك الارض وشدهم اليها . لكنه لم يحاول ادخال انماط التنظيم الاداري العثماني بكل تفاصيله في منطقتين جبليتين من مناطق بلاد الشام احدهما ، المنطقة الشمالية وتضم ملاطية وبهنسي وعنيتاب وقلعة الروم وتسكنها قبائل تركية وتركمانية لها عاداتها الخاصة وتنظيمها العشائري الذي ينسجم مع طبيعة المنطقة الجبلية . وثانيهما منطقة جبل لبنان التي كان لها كذلك امراؤها الاقطاعيون من المارونيين والدروز . وكانوا يعيشون أيام الحكم المملوكي متنافسين متناحرين ، ويتمتعون باوضاع شبه استقلالية ساعدتهم على دعمها مناطقهم الجبلية الوعرة . لذلك رأى السلطان سليم ضرورة ابقاء المنطقتين بايدي رؤسائها الوارثين يحكمونها وفقاً لعاداتهم الخاصة ويرتبطون بالسلطان العثماني بروابط التبعية ، ويقدمون له ما عليهم من خراج الارض . وساعده على ذلك ان كثيراً منهم قد وفد اليه مقدماً فروض الطاعة والولاء بعد انتصاره في معركة مرج دابق ولعل ابرز الذين وفدوا عليه فخر الدين المعني الذي اعترف السلطان به أميراً على جبل لبنان .

بينما كان السلطان العثماني سليم الاول يدعم سيطرته على الشام اجتمع في القاهرة قادة المماليك العائدون من القتال ، وانتخبوا نائب السلطان الغوري (طومان باي) سلطاناً جديداً عليهم . وقد كان على طومان باي توحيد صفوف المماليك ، واعادة بناء الجيش المملوكي بعد هزيمة مرج دابق وسقوط الشام بما يكفل الصمود في وجه الجيش العثماني ومما زاد في صعوبة هذه المهمة ان الوقت لم يعد كافياً للقيام بهذه المهمة على الوجه الاكمل ، بعد ان قرر السلطان سليم مواصلة زحفه نحو مصر واسقاط دولة المماليك .

اعتقد السلطان سليم ان معركة مرج دابق ستؤدي الى انهيار دولة المماليك وسقوطها نهائياً في قبضته لذلك عرض على طومان باي السلطان

المملوكي الجديد الاعتراف بالخضوع للسيطرة العثمانية في مقابل الاحتفاظ بمنصب حاكم مصر ولكن طومان باي رفض ذلك واصر على المقاومة . ويبدو ان هناك سببين مهمين لذلك اولهما ان طومان باي كان يعتقد ان السلطان سليم لم يكن جاداً فيما عرضه من مقترحات ، اذ ان رسالته التي بعث بها تنطوي على تهديد مباشر ، فسليم يعلم يقيناً ان قاعدة المماليك الاساسية هي مصر وليس الشام ، ولو أنه عاد الى استانبول بدون غزو مصر ، فمن المؤكد ان المماليك سيحاولون تجميع قواهم والتحول من موقف الدفاع الى الهجوم على العثمانيين لاستعادة الشام . اما السبب الثاني فيكمن في ضغط الامراء المماليك على طومان باي خشية ان يثبت مركزه كسلطان في ...

اتجه السلطان سليم نحو جنوب سوريا واحتل فلسطين ثم اجتاز صحراء سيناء ووصل الى شواطيء النيل مطلع سنة ١٥١٧م . وقد سهلت الامطار الغزيرة التي هطلت تلك السنة على الجيش العثماني عملياته العسكرية ...

حاول المماليك بقيادة طومان باي تجميع قواهم واقاموا خطاً دفاعياً امام الدلتا لعرقلة الزحف العثماني . غير ان العثمانيين بعد استيلائهم على غزة تجنبوا هذا الخط الدفاعي وانحرفوا نحو الجنوب ، ودخلوا الدلتا من بلبيس .. وفي مشارف القاهرة عند (الريدانية) حدثت المعركة الحاسمة الثانية في حياة الدولة المملوكية في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٥١٧م . وانتهت بهزيمة المماليك ودخول العثمانيين مدينة القاهرة في اليوم السادس والعشرين من الشهر نفسه وبذلك هوت الدولة المملوكية التي امتدت حكمها من سنة ١٢٥٠م وحتى سنة ١٥١٧م.

انسحبت طومان باي الى منطقة الجيزة ،وحاول تنظيم حركة المقاومة هناك ولكن القوات العثمانية تعقبته حتى فر الى الدلتا ليقع في قبضة العثمانيين وعند مديرية البحيرة تم اعدامه في ١٧نيسان سنة ١٥١٧ بعد ان استقبله السلطان

... ام السلطان عليا حادثة طويلة في شؤون مصر وادارتها واعجب ... وذكائه ويقال ان سليم اراد الابقاء على حياته لولا الحاح ... على اعدامه بحجة ان هناك مؤمرة يقصد بها انقاذه من الاسر .

بقي السلطان سليم في مصر بضعة شهور يدرس احوالها مع مستشاره ... الكردي ادريس البدليسي صاحب كتاب الشرفنامة ، ويقال ان ... البدليسي نصحه بان لايثقل كاهل المصريين بالضرائب . كما التقى السلطان ... مع مندوبي البندقية وعقد معهم معاهدة منحتهم امتيازات تجارية ... مصر على غرار الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عهد المماليك . ... اتخذت هذه المعاهدة فيما بعد اساساً لمعاهدات الدولة العثمانية مع ... الاوربية الاخرى فيما يتعلق بالامتيازات التجارية .

ما هي الاجراءات الادارية التي اتخذها السلطان سليم الاول في مصر

قام السلطان سليم بتقسيم مصر إلى اربع وعشرين مديرية . واصدر ... اثناء اقامته منها بتعيين يونس باشا اول وال عليها ، الا انه قبيل ... اصدر قراراً ثانياً بعزله وتعيين خاير بيك محله وقد ظل هذا محتفظاً ... حتى موته سنة ١٥٢٢م .وقد اصدر الوالي خاير بيك بأمر من السلطان ... قرارا بالعفو الشامل عن المماليك وتوزيع الرواتب عليهم وتولية ... مناصب ادارية مهمة وذلك لخبرتهم الطويلة ودرايتهم باحوال ... ولم تكن هذه السياسة جديدة على السلطان سليم فقد سبق له الاعتماد ... العصبيات المحلية في الشام بعد ان ضمن خضوع زعمائها وولاءهم ... العثمانية . فعلى سبيل المثال اسند شؤون الادارة المحلية في جبل ... — كما اشرنا سابقاً — إلى الامير فخرالدين المعني امير الشوف ، والامير ... التركماني حاكم كسروان والامير منصور الشهابي حاكم وادي ... بعد ان انضموا إلى صفوف العثمانيين في اعقاب هزيمة المماليك في ... مرج دابق .

وكانت وجهة نظر السلطان سليم في ذلك مبنية على اساس الاستفادة ... هذه العصبيات المحلية في بعض الولايات البعيدة مثل مصر وجعلها

عنصر موازنة بين الوالي وقائد الحامية العسكرية . ومنعاً لحدوث اي استئثار بالسلطة او حصرها في يد واحدة قد تجد في بعد مصر عن استانبول مايشجعها على اعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية .

وعلى هذا الاساس وافق السلطان سليم اثناء اقامته بمصر على تعيين اربعين من امراء المماليك واسند اليهم بعض المناصب الادارية كما دخل بعضهم في عضوية ديوان الباشا (ديوان محروسة مصر) وهو مجلس اداري يرأسه الوالي وقد تشكل في مصر في اعقاب الغزو العثماني في رؤساء الحامية العسكرية ومن الكتخدار (نائب الوالي) والدفتردار (المسؤول عن الامور المالية) واميرالحج . وكانت مهمة الديوان في بداية الامر تنحصر في معاونة الوالي في شؤون الادارة والحكم ، ثم تطورت بعد ذلك واصبحت تشمل منع الوالي من اساءة استعمال سلطته .

عندما سقطت دولة المماليك في يد العثمانيين كان من الطبيعي ان يتبع ذلك سقوط الحجاز . وذلك لان المماليك كانوا اصحاب السيادة عليه . وقد اعلن زين الدين بركات شريف مكة (١٤٩٧ — ١٥٢٥م) ولاءه للسلطان العثماني بعد ان وصله فرمان منح الامان . وقد ارسل الشريف بركات وفده إلى القاهرة برئاسة ابنه الكبير «ابو نمي» ليقدم فروض الولاء في ٣ تموز ١٥١٧م ويلقى بين يدي السلطان سليم بمفاتيح الكعبة وبعض الآثار النبوية الشريفة اقراراً له بالسيادة على الحجاز . وقد استقبل السلطان سليم أبي نمي بحفاوة بالغة واعطاه تفويضاً بحكم والده واعلن السلطان سليم نفسه خادماً للحرمين الشريفين . وقد ساعد هذا التفويض الشريف بركات في تقوية مركزه امام خصومه في الشرافة . وهكذا دخل الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولاً سلمياً . وقد احتفظ العثمانيون بنظام الشرافة كما كان عليه ايام المماليك مع انشاء متصرفية في جدة باسم متصرفية الجيش : واوقفت الدولة اوقافاً كثيرة على الاماكن المقدسة . وكانت ايراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف بـ«حرمين دولابي» .

اما علاقة العثمانيين باليمن : فقد بدت واضحة بعد سقوط الدولة المملوكية ودخول السلطان سليم القاهرة . فقد ارسل اسكندر الجركسي حاكم اليمن المملوكي وفداً ليقدم فروض الولاء للسلطان العثماني الذي وافق على ابقائه في منصبه ، الا ان الصراعات الداخلية بين القادة المماليك انفسهم من جهة وازدياد نفوذ الامامة الزيدية بين قبائل الجبال من جهة اخرى جعلت السيطرة العثمانية في اليمن ضعيفة . هذا بالاضافة إلى الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية مباشرة لذلك فقد بعث العثمانيون قوة عسكرية الى اليمن لم تستطع اقرار الامن والدفاع عن السفن الاسلامية التي كانت تتعرض لمدفعية البرتغاليين وذلك بسبب النزاع الذي نشب بين قائدها حسين الرومي متصرف جدة والريس سلمان احد قادة البحر العثمانيين.

ان موقع اليمن إلى الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية له اهمية كبيرة في اقتناع العثمانيين بان سيطرتم المباشرة عليه تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن المقدسة في الحجاز . والتحكم في البحرين الاحمر والعربي وامتلاك موطىء صالح للوثوب على الاسطول البرتغالي في المياه العربية .

تعد حملة سليمان باشا الارناؤطي سنة ١٥٣٨م اول حملة منظمة إلى اليمن فقد ضمت (٢٠) الف شخص مع (٧٤) سفينة بحرية ، مجهزة بالمدافع . وكان من اهداف الحملة ان يحتل العثمانيون اليمن ويسبقوا البرتغاليين في احتلال عدن ثم غلق مضيق باب المندب في وجه الاساطيل الاجنبية . وفي ١٥٣٩م بدأ العثمانيون بعمليات توطيد السيطرة مما ادى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الائمة الزيدية . وقد احتل العثمانيون عدن سنة ١٥٣٨م وتعز سنة ١٥٤٥م. كما سقطت صنعاء في قبضتهم سنة ١٥٤٧م.

لقد اصبحت اليمن بعد الاحتلال العثماني تضم تسعة الوية (سناجق) وهي صنعاء ، مخا ، زبيد ، صهلة ، كوكبان ، طويلة ، مأرب ، عدن . ومن ناحية اخرى تحرك سليمان باشا ، باسطوله ليستولي على بعض الموانىء

العربية في حضرموت ومنها الشحر والمكلأ واجتاح ساحل الحبشة وعاد إلى السويس واكتفت الدولة العثمانية في تلك المرحلة باحتلال سواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الاحمر سنة ١٥٥٧م ولم تستطع الحبشة التدخل ضد العثمانيين انذاك بقوة لانها كانت تعاني من ظروف الانقسام بين مؤيدي الكنيسة الشرقية ومؤيدي الكنيسة الغربية ، وذلك قبل دخولهما في حرب اهلية طويلة استمرت حتى اوائل القرن السابع عشر . وقد استفاد العثمانيون من هذه الظروف فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج العربي بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي وقد مهد لهم ذلك ، السيطرة على العراق .

هذا وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني الاول (١٥٣٨ ١٦٣٥) م تتنازعها قوى العثمانيين والائمة الزيدية . فالعثمانيون لم يستطيعوا ان يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركات المقاومة التي سنواجههم كما سنرى .

السيطرة العثمانية على العراق والخليج العربي :

لقد ابقى السلطان سليم الاول بعد انتصاره في موقعة جالديران سنة ١٥١٤م فرهاد باشا احد قواده لاكمال احتلال الولايات المتاخمة للحدود العثمانية . وقد امر فرهاد باشا بيقلي محمد باشا بالسيطرة على ماردين والرها والرقة والموصل وسنجار وتلعفر وجزيرة ابن عمر والعمادية واربيل وكركوك وقد تم احتلالها سنة ١٥١٥م. غير ان الحكم العثماني ، في هذه المناطق ظل قلقاً بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه السكان من العثمانيين انذاك .

اما العراق الاوسط والجنوبي فقد بقي تحت الاحتلال الفارسي . وقد تدهورت اوضاع سكانه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية نتيجة لسياسة الاهمال التي اتبعها المحتلون الفرس . فقد كثرت الاوبئة واهملت مشاريع

الري وظل نظام الاراضي يعاني كثيراً من الفوضى .

قام السلطان سليم الاول باعداد حملة لاحتلال العراق وطرد الفرس الصفويين ولكن المنية عاجلته سنة ١٥٢٠م. وعندما تبوأ السلطان سليمان القانوني العرش (١٥٢٠ — ١٥٦٦) وضع في منهاجه توجيه ضربة قوية إلى الدولة الصفوية عن طريق السيطرة على العراق والذي يمكن ان تتخذه الدولة العثمانية فيما بعد كقاعدة للانطلاق نحو الخليج العربي تعزيزاً لجهودها في مواجهة البرتغاليين في البحرين الاحمر والعربي .

لقد حاول السلطان سليمان القانوني في بداية الامر تنفيذ احتلال العراق باستمالة بعض حكامه المحليين . ولكن هذه الخطوة كانت سبباً في جعل العراق ساحة للصراع العثماني الفارسي وكاد السلطان سليمان القانوني يحقق هدفه بالسيطرة على العراق حين اعلن ذو الفقار بيك بن علي بيك نفسه حاكماً على بغداد وعزل عمه ابراهيم خان موصلو . وتقرب من العثمانيين واظهر الولاء لهم بعد ان بعث برسالة إلى السلطان سليمان القانوني بذلك .

الا ان الشاه طهماسب الاول الذي تولى الحكم بعد ابيه اسماعيل سنة ١٥٢٤م قام بهجوم كبير على بغداد سنة ١٥٣٠م وتمكن من قتل ذو الفقار واخماد حركته واعادة العراق إلى الحكم الفارسي ثانية .

شجعت هذه الاحداث العثمانيين على ان يتولوا بانفسهم السيطرة على العراق. ففي سنة ١٥٣٤م تحرك السلطان سليمان القانوني بجيش كبير متجهاً نحو تبريز فوصل إلى سلطانية في ١٣ تشرين الاول وكانت الجيوش الفارسية تنسحب من امامه مرحلة بعد اخرى حتى وصل إلى همدان وعبر جبال زاكروس وتوجه غرباً نحو بغداد . اما الحامية الفارسية فيها فقد انسحبت عند سماعها بانباء وصول الجيش العثماني . وهكذا دخل السلطان سليمان القانوني بغداد في ٣٠ كانون الاول سنة ١٥٣٤م دون ان يواجه مقاومة تذكر .

اقام السلطان سليمان القانوني في بغداد اربعة اشهر عمل خلالها على طمأنينة السكان وتحقيق الاستقرار وتنظيم الادارة والضرائب . فقد ارسل محمد باشا إلى الموصل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها ووافق على تعيين الشيخ راشد بن مغامس امير البصرة العربي والياً عليها شريطة ان يكون تابعاً لباشا بغداد . ثم عين حاكم ديار بكر السابق سليمان باشا الطويل اول وال عثماني في بغداد .

اصبح العراق في عهد السلطان سليمان القانوني مقسما الى خمس مناطق ادارية عرفت بالايالات وهي ايالة البصرة وايالة الموصل وايالة الاحساء وايالة شهرزور . وقد اعقب احتلال العراق امتداد النفوذ العثماني على منطقة الخليج العربي اذ صارت البصرة بعد تأكيد السيطرة العثمانية عليها سنة ١٥٤٦ القاعدة الثانية بعد السويس لارسال الحملات البحرية ضد البرتغاليين وقد بدأ الصراع السافر بين العثمانيين والبرتغاليين في سنة ١٥٥٠ عندما اعلن اهالي القطيف انهم لايدينون بالولاء لحاكم هرمز (حليف البرتغاليين) وانهم يفضلوا الدخول في حماية العثمانيين. وقد اسرع البرتغاليون لافشال مطمح سكان القطيف واعادة الاوضاع الى سابق عهدها . ولقد ارسل السلطان العثماني سنة ١٥٥١م قائد البحر بيري بك على رأس اسطول يتألف من ثلاثين سفينة لتهدئة اوضاع عدن الثائرة ضد العثمانيين ولكسر الطوق البرتغالي على التجارة في الخليج العربي .

حاصر بيري بك هرمز مدة شهر كامل ، الا ان تحصيناتها القوية التي انشأها البرتغاليون خلال وجودهم منذ اربعين سنة حالت دون سقوطها فاضطر الى التراجع نحو البصرة بثلاث سفن فقط تاركاً بقية اسطوله في مضيق هرمز خوفاً من تقدم اسطول برتغالي قوى نحوه واحتمال غلق المضيق بوجهه . وقد اعدم بيري بك في استانبول بعد ان وجهت اليه تهمة الفشل في تحقيق اهداف العثمانيين في الخليج العربي وتشويه سمعة البحرية العثمانية . وقد واصل العثمانيون جهودهم ضد البرتغاليين في الخليج العربي فأسندت

اسطول البحري في مصر سنة ١٥٥٣م الى سيدي علي الذي كانت له سمعة طيبة بسبب جهوده في البحر المتوسط . وقد وصل سيدي علي البصرة وتسلم من الوالي العثماني هناك خمس عشرة سفينة واقلع سنة١٥٥٤م متوجهاً الى هرمز وهناك اصطدم باسطول برتغالي قوى يتألف من اربع وثلاثين سفينة . وبسبب اطلاقات مدافع البرتغاليين والرياح المعاكسة القوية اندفع الاسطول العثماني دون خطة باتجاه السواحل الهندية . وفي ميناء سورات تفرق اعوان سيدي علي وتركوا مالديهم من سفن وساروا في الطريق البري عائدين الى البصرة ، فاضطر سيدي علي الى بيع السفن وارسال اثمانها الى استانبول .

وبعد حملة سيدي علي ارسلت الى الخليج العربي بضع حملات عثمانية . الا انها لم تنجز اكثر من احتلال مؤقت للبحرين سنة١٥٥٩م ولمسقط سنة ١٥٨١م وفي كلتا الحالتين اجبرتها الاساطيل البرتغالية على الانسحاب. ان الحملات العثمانية المتوالية ، بالرغم من عدم تكللها بالنجاح التام الا انها ساهمت ، بشكل او بآخر في اضعاف شوكة البرتغاليين في الخليج العربي ولم يعد الطوق الذي فرضوه محكما. على انه لم يتحقق التخلص من النفوذ البرتغالي نهائياً الا على يد عرب الخليج انفسهم . ولقد ساعد خضوع البرتغال للعرش الاسباني بين سنتي ١٥٨٠ — ١٦٤٠م ووصول الانكليز والهولنديين الى الخليج العربي على اضعاف البرتغاليين وتقليص نفوذهم في الخليج العربي ولكن نمو قوة عرب عمان كانت العامل الحاسم في طرد البرتغاليين من المنطقة . لقد ظهرت دولة اليعاربة في عمان سنة ١٦٢٤م وتولت مسؤولية الصراع ضد البرتغاليين ونجحت في عهد حكامها الاوائل وخاصة ناصر بن مرشد ١٦٢٤ — ١٦٤٩م وسلطان بن سيف ١٦٤٩ — ١٦٦٨م في القيام بحركة تحريرية كبرى لم تقتصر على مناطق النفوذ البرتغالي في الخليج او سواحل الجزيرة العربية ، وانما امتدت الى قواعد البرتغاليين وقلاعهم في الهند وفي سواحل شرق افريقيا . فتحررت صحار ومسقط . وكان ميناء

كنجان الصغير على الشاطىء الشرقي للخليج العربي اخر معقل للبرتغاليين دمره العمانيون سنة ١٦٩٥ .

ان اسباب عدم نجاح العثمانيين نجاحاً تاماً في كفاحهم ضد البرتغاليين يمكن ان يعزي الى عدم كفاءة بعض قادتهم البحريين وقيامهم باعمال تعسفية ازاء السكان العرب بالرغم من تعاونهم مع العثمانيين في جهودهم الحربية المناهضة للبرتغاليين . بالاضافة الى ذلك فان الاسطول العثماني في القرن السادس عشر كان مؤلفاً من سفن صغيرة غير قادرة على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة . يضاف الى ذلك صعوبة تجهيز وادامة اسطول عثماني تكفي قوته لمواجهة الاساطيل الاوربية في البحر المتوسط والمحيط الهندي في الوقت نفسه ، وذلك لانشغال الدولة العثمانية في هذه الفترة بالحروب البرية الطويلة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد الصفويين .

ومهما يكن من امر ، فان من نتائج الصراع العثماني ـ البرتغالي قدرة العثمانيين في المحافظة على الاماكن المقدسة الاسلامية وطريق الحج وكذلك حماية الحدود الاسلامية البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر . كما ان البرتغاليين ، برغم مابذلوه من جهود لم يستطيعوا قطع الطرق التجارية التي تربط الهند واندنوسيا بالشرق الادنى عبر الخليج العربي والبحر الاحمر . فقد استمرت عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الاوربيين في اسواق حلب والقاهرة واستانبول وبورصة . وفي سنة ١٥٥٤م على سبيل المثال اشترى البندقيون وحدهم ستة الاف قنطار (القنطار يساوي ١٠٠ كغم) من التوابل في الاسكندرية . وفي الوقت نفسه كانت تصل الى ميناء جدة في كل سنة حوالي عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية كالتوابل والاصباغ والانسجة .

اذ ان مشتريات البندقيين السنوية من التوابل البالغة ١٢ الف قنطار بين سنتي ١٥٦٠ و١٥٦٤م هي نفس الكمية التي كانوا يشترونها قبل اكتشاف فاسكودي غاما للطريق البحري الجديد المؤدي إلى الهند .

السيطرة العثمانية على اقطار المغرب العربي :

اشرنا فيما سبق إلى اوضاع التفكك السياسي والتدهور الاقتصادي الذي كانت تعيشه اقطار المغرب العربي وخاصة بعد ظهور الاطماع الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية . لذلك فقد اخذ السلطان سليم الاول على عاتقه مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الاوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وقد عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة ظهور حركة عامة بين قادة البحر المغاربة استهدف العمل على حماية موانيهم وسواحلهم من الاطماع الاوربية ، والعمل على تأمين وصول المهاجرين العرب من الاندلس بعد سقوط الدولة العربية فيها سنة ١٤٩٢ .

لقد كان من ابرز اولئك القادة البحاران المغربيان عروج بن يعقوب واخيه خير الدين المعروف بباربروس (اي ذو اللحية الشقراء) اللذان كانا يمتلكان اسطولاً قوياً يعمل في البحر المتوسط . وكان عروج منذ سنة ١٥١٠م يتولى ادارة جزيرة جربة ، وهي جزيرة صغيرة تقع في خليج قابس شرقي تونس بموافقة سلطان تونس ابي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي (١٤٩٤ـ١٥٢٦م) مقابل دفعه للسلطان خمس الغنائم التي يحصل عليها من جراء الغارات التي يشنها على السفن الاوربية .

وكان للقصص التي يتداولها الناس عن الفظائع التي يرتكبها الاسبان ضد عرب الاندلس والمخاطر التي يتعرضون لها عقب خروجهم من الاندلس ولاسيما خطر وقوعهم اسرى لدى القراصنة الاوربيين من الاسباب التي جعلت عروج واخيه خير الدين يوجهان جزءاً من نشاطها للعمل على انقاذ العرب الاندلسيين عن طريق تأمين ايصالهم بسلام إلى المغرب العربي . ويقال ان عدد الذين تم انقاذهم يقدر بعشرات الالاف .

اتجهت انظار عرب المغرب إلى عروج واخيه خير الدين لانقاذهما

من النير الاجنبي . وكانت بجاية في طليعة المدن التي استنجدت بالاخوين لتحريرها من الاسبان ، وربما كان ذلك بسبب كونها انذاك اكبر ميناء في شرقي الجزائر . وقد لبي الاخوان الدعوة ، لكنهما أخفقا في تحريرها بسبب مناعة حصونها . لذلك احس الاخوان بضرورة البحث عن قاعدة جديدة لنشاطها ، فوقع اختيارهما على ميناء جيجل الجزائري الذي يقع على بعد (١٠٢) كم غرب بجاية . وقد تمكن الاخوان من تحريره وجعله مركزا لنشاطهما .

اتصل عروج بعد تحرير جيجل بالسلطان سليم الاول وارسل اليه جزءاً من الغنائم وشرح له طبيعة المخاطر التي يتعرض لها المغرب العربي وبين له حاجته إلى الدعم والتأييد . وقد اغتبط السلطان سليم بهذا العرض وبعث إلى عروج اسطولا مؤلفاً من (١٤) سفينة مع امدادات من الرجال والسلاح والذخيرة . ويبدو ان الدعم الذي تلقاه عروج من العثمانيين زاد من امكاناته وطموحه . اذ حاول احتلال بجاية ثانية في آب ١٥١٤م واستعان لذلك الغرض بقوة من قبيلة كتامة قوامها عشرون الف مقاتل الا انه فشل في ذلك واضطر إلى رفع الحصار الذي استمر ثلاثة اشهر وعاد إلى مقره في جيجل . ويمكن عزو هذا الاخفاق إلى عوامل عدة منها رداءة الاحوال الجوية ، ووصول قوة اسبانية لنجدة حامية بجاية ، اضافة إلى حاول البذار وماترتب عنه من تخلي رجال القبائل عن القتال وعودتهم إلى حقولهم .

قرر عروج توجيه جهوده نحو تحرير ميناء الجزائر بعد ان تسلم بضعة رسائل استغاثة من بعض الاهالي . ومما تضمنته رسالة احدهم وهو الشيخ ابو العباس بن أحمد بن قاضي الزواوي . وهو عالم وفقيه جزائري معروف بموقفه المعادي للاسبان قوله «ان بلادنا بقيت لك او لاخيك او للذئب» . وقد جاء قرار عروج هذا اثر دراسة مستفيضة لاوضاع الجزائر

ا. ادرك ان نجاحه في احتلال الجزائر وهي التي تتمتع بموقع ممتاز على البحر في منتصف المسافة بين بجاية ووهران سيجعله قادراً على انقاذ بجاية وسواها من المدن الساحلية التي كانت ترزح تحت النير الاسباني . لذا ان السيطرة على الميناء ستكون بمثابة خطوة على طريق تأسيس حكم جديد في الجزائر تكون السلطة فيه له ولاخيه ، وعليه اتصل عروج باخيه خير الدين وكان انذاك في تونس وطلب منه تجنيد المتطوعين الراغبين في القتال ضد الاسبان والتوجه بهم بحراً للمساهمة في هذه الحملة . خرج خير الدين على رأس قوة بحرية مؤلفة من (٢١) سفينةعلى متنها (١٥٠٠) مقاتل . اما عروج فقد غادر جيجل ومعه قوة برية قوامها (٨٠٠) مقاتل. واخذ في طريقه إلى ميناء الجزائر يجند القبائل الجزائرية حتى بلغ عدد افرادها (٥٠٠٠) مقاتل . وبعد ان نجح الاخوان في تحطيم المحاولات الدفاعية التي قامت بها الحامية الاسبانية وتم لهما تحرير ميناء الجزائر في اواسط سنة ١٥١٦م . اتجها نحو تلمسان وتنس والمدية وميليانة في جنوب مدينة الجزائر لتحريرها من السيطرة الاجنبية .

حاول عروج انشاء دولة في الجزائر قادرة على تحقيق وحدة المغرب العربي . الا ان هذه البداية الناجحة فشلت حين ادرك الاسبان ان قوات عروج اصبحت تشكل تهديداً خطيراً لوجودهم الاستعماري في المنطقة كلها . لذلك فقد اصدر الملك شارل الخامس اوامره إلى حاكم وهران الاسباني بالتقدم نحو تلمسان واجلاء قوات عروج عنها . وقد نجحت القوة الاسبانية في محاصرة عروج في مكان يقع قرب وادي الملح بين وهران وتلمسان وقتله وتشتيت اتباعه سنة ١٥١٨م .

ادار خير الدين الصراع ضد المستعمرين الاسبان بعد مقتل اخيه عروج . وادرك منذ البداية ضعف موقفه السياسي وضآلة امكانياته العسكرية . لذلك ارسل بعثة إلى استانبول ترأسها ابو العباس بن احمد بن قاضي الزواوي يطلب فيها المساعدة من العثمانيين ، على امل ان يؤدي ذلك إلى

تقوية مركزه ومن ثم تمكينه من الوقوف بوجه الاسبان . وقد رحب السلطان سليم بالبعثة ، ومنح خير الدين لقب باشا ورتبة بكلر بكي الجزائر وأرسل اليه في سنة ١٥١٨م قوة من الانكشارية قوامها ستة الاف رجل بمدافعهم وعتادهم الحربي تكون منهم (الاوجاق) اي قوة الجزائر الحربية وسمح له بتجنيد المتطوعين من الاناضول .

وقد نجح خير الدين في احتلال قلعة البينون penon يوم ٢٧ ايار سنة ١٥٢٩م بعد سلسلة من المعارك الدامة ضد المحتلين الاسبان . وبذلك خلص مدينة الجزائر من نيران المدفعية الاسبانية التي كانت تسلط عليها من من هذه القلعة التي لم تكن تبعد عن المدينة اكثر من (٣٠٠) متر . ان احتلال قلعة البينون ثبت وضمن أمن مدينة الجزائر ، ويُعد ذلك في الحقيقة بداية السيطرة العثمانية على المغرب العربي .

فقد استدعى السلطان سليمان القانوني خير الدين باربروس إلى استانبول ليتفق معه حول الاجراءات التي يمكن اتخاذها لايقاف الزحف الاوربي والعمل على تثبيت اقدام العثمانيين في الغرب العربي كجزء من عملية توسعهم في الوطن العربي

قام خير الدين ، باعادة بناء الاسطول الجزائري ، واستعد لاقتحام تونس وضمان حرية التنقل بين شواطىء واطي البحر المتوسط . وفي ١٨ نيسان سنة ١٥٣٤م استولى بسهولة على مدينة تونس بعد ان اغتنم الثورة التي نشبت فيها ضد حاكمها أبي محمد الحسن الحفصي حليف الاسبان .

وسرعان ما استنجد الحسن بالاسبان ، الذين هرعوا إلى تجميع اسطولهم في حزيران سنة ١٥٣٥م امام ساحل سردينيا والتوجه نحو تونس والاصطدام مع قوات خير الدين ومحاصرتها . عندئذ اضطر خير الدين للانسحاب إلى ميناء عنابة ثم إلى ميناء الجزائر . اما الاسبان فقد احتلوا مدينة تونس يوم ٢١ تموز ١٥٣٥م واعادوا الحسن إلى عرشه بعد ان عقدوا معه اتفاقاً ضمن لهم مصالحهم . وكان من ابرز بنود الاتفاق :

١ ــ اطلاق سراح جميع الاسرى الاوربيين دون دفع اية فدية .

٢ ــ ضمان حرية التجارة للاوربيين والامتناع عن اعمال القرصنة .

٣ ــ على سلطان تونس دفع جزية سنوية إلى الاسبان مقدارها (١٢) الف قرش .

٤ ــ ان يتعهد سلطان تونس بتقديم هدية سنوية مكونة من (١٢) حصاناً و (١٢) مدفعاً دليلا على الاستمرار بالاعتراف بالسيادة الاسبانية .

٥ ــ تتعهد اسبانيا بحماية تونس ضد اي هجوم اجنبي .

٦ ــ يبقى احتلال تونس لحين هدوء الحالة فيها .

بالغ الاسبان في الانتقام من التونسيين بسبب انضمامهم لقوات خير الدين فاستباحوا المدن التونسية ثلاثة ايام وفتكوا بقرابة ستين الفاً من المواطنين التونسيين لذلك سرعان ما اندلعت الانتفاضات الشعبية ضد صنيعة الاسبان الحسن الحفصي وقد بلغت هذه الانتفاضات ذروتها في القيروان التي رفضت الاعتراف بسلطان يدين بعرشه للتدخل الاجنبي. ثم توالت الانتفاضات مما اضطر السلطان الحفصي إلى الفرار فاستدعى التونسيون ابنه ابا العباس أحمد والي عنابه لتولي الحكم .

وجه الاسبان اسطولهم إلى جزيرة جربة سنة ١٥٦٠م فاصطدم به الاسطول العثماني ودحره وكان من بين الاسرى الاوربيين الكونت سيكالا الذي اعلن اسلامه وعرف باسم سنان باشا وكان له فيما بعد دور كبير في قيادة الاسطول العثماني وتحرير تونس من السيطرة الاسبانية في اواخر سنة ١٥٧٤م ومنذ ذلك الوقت وحتى ١٥٧٨م غدت تونس ولاية عثمانية يشرف على ادارتها والي الجزائر .

اما ليبيا، فقد سبق ان اشرنا إلى احتلال الاسبان لمينائها طرابلس في سنة ١٥١٠م وفي سنة ١٥٣٥م سلمت إلى فرسان القديس يوحنا بعد ان اشترطوا عليهم الدفاع عنه ضد العرب. وكان هذا التسليم ضمن اتفاقية عاملة طالب

فيها الفرسان من شارل الخامس تسليم مالطة لتكون قاعدة لهم يغزون منها الوطن العربي .

في اعقاب تولي خير الدين قيادة الاسطول العثماني سنة ١٥٣٣م وضع خطة للاستيلاء على طرابلس. الا ان التدخل الاسباني في سنة ١٥٣٥م أدى إلى فشل الخطة. وفي ١٨ أيلول سنة ١٥٥١ نجحت السفن العثمانية التي تجمعت في شرق البحر المتوسط. ومنذ ذلك الوقت اصبحت طرابلس ولاية عثمانية .

اما اقليم برقة فقد كان تحت السيطرة العثمانية منذ الاستيلاء على مصر. وقد اعلن زعماء اقليم فزان من اسرة بني محمد ولاءهم للعثمانيين .

تولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيين، كان دارغوث باشا أشهرهم. وهو الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها. كما انشأ فرق الانكشارية هناك. على ان اهتمام العثمانيين بليبيا ظل عسكرياً بالدرجة الاول واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية .

اما مراكش الواقعة في الركن الغربي من المغرب فقد ظلت بعيدة عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها القادة العثمانيون ومنهم علي العلج، بكر بكي الجزائر منذ ١٥٦٨م لاخضاع مراكش الا ان ذلك لم يتحقق لسببين مهمين اولهما : النصر الكبير الذي حققه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة ١٥٧٨م، الذي جعلهم محط تقدير السلطان العثماني ورغبته في ايقاف الحملات الموجهة ضد مراكش وثانيهما: ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ذلك هو المنصور السعدي الذي سعى للمحافظة على استقلال مراكش وعدم الخضوع للسيطرة العثمانية .

لقد اتسم تاريخ العثمانيين في المغرب العربي بظاهرة ضعف السيطرة

العثمانية على ولاياته وبخاصة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر وذلك لبعد المسافة التي تفصل بين هذه الولايات وعاصمة الدولة. ثم لضعف الاداة التي لابد منها لاحتفاظ الدولة بسيطرتها على تلك الولايات وهي القوة البحرية لذلك فقد لجأت هذه الولايات إلى تنظيم اداة الحكم والحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها في مواجهة الغزو الاوربي. فقامت في طرابلس وتونس والجزائر اسر حاكمة تدين بالولاء الاسمي للعثمانيين ويتوارث اعضاؤها الحكم فيما بينهم . ففي طرابلس قامت الاسرة القرمانلية وحكمت من ١٧١١حتى ١٨٣٥م. اما في تونس فقد ظهرت الاسرة الحسينية التي تولت الحكم منذ ١٧٠٤ وحتى ١٩٥٦م. وفي الجزائر اعتاد قادة البحر على اختيار حاكم من بينهم، يسمونه (الداى) اما مراكش فقد استعصت على العثمانيين بفضل المقاومة التي ابدتها اسرة الشرفاء العلويين التي ما تزال في الحكم حتى يومنا هذا .

بزعامة مراد بك ، وقد استمر هذا الصراع ، حتى حدوث الغزو الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨ م .

٤ – آل ظاهر العمر في فلسطين :

وفي فلسطين ظهرت بضعة قوى محلية ، الا ان من ابرز هذه القوى الشيخ ظاهر العمر ، فقد استطاع هذا الشيخ البدوي سنة ١٧٣٧م وكان يعمل حاكماً على صفد ان يوسع ممتلكاته وذلك بضم طبرية ونابلس ويافا والناصرة. كما استولى على عكا ، سنة ١٧٥٠م وجعلها عاصمة له واحتل مرفأ صيدا سنة ١٧٧٠م بعد ان تحالف مع المتاولة في جبل عامل وهم عشيرة كبيرة في لبنان . وقد صرف النظر عن مدينة بيروت لأن اميرها منصور الشهابي استرضاه بالمال .

ان مما ساعد ظاهر العمر على تحقيق طموحه في الاستقلال عن الدولة العثمانية ، تحالفه مع علي بك الكبير حاكم مصر المملوكي الذي لم يتوان بعد احتلاله الشام عن تقديم المساعدات العسكرية لظاهر العمر . كما نال مساعدة الاسطول الروسي الذي وصلت بعض قطعاته سواحل الشام في ١٧٧٣م .

عندئذ استعانت الحكومة العثمانية ، بيوسف الشهابي حاكم جبل لبنان للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته التوسعية على حساب السلطة العثمانية في الشام . كما اوعزت للقائد العسكري احمد باشا الجزار الالباني بالقضاء على حكم ظاهر العمر. وتحركت من استانبول في الفترة ذاتها نجدة بحرية ، تمكنت بمساعدة قوتي الشهابي والجزار من احتلال صيدا سنة ١٧٧٥م ومحاصرة عكا. وخلال الحصار قتل ظاهر العمر وبذلك عادت السيطرة العثمانية المباشرة على فلسطين. وعين العثمانيون احمد باشا الجزار والياً على المنطقة الممتدة من صيدا وحتى عكا. وقد عمد الجزار إلى بناء اسطول بحري ، وجيش من المشاة بلغ عدده قرابة الف جندي. كما اصدر قراره باحتكار بعض المرافق التجارية في منطقته لتغطية نفقات ولايته الضرورية. وظل يحكم المنطقة قرابة

الثلاثين سنة، وقد بلغ اوج مجده سنة ١٧٩٩م حين نجح في انقاذ عكا من حصار الفرنسيين لها وايقاف زحف نابليون بونابرت وابعاده عن الشام.

٥ — آل معن في لبنان :

اشرنا فيما سبق إلى أن السلطان العثماني سليم الأول ابقى سنة ١٥١٦م الأمير فخر الدين المعني الأول في اقطاعية الشوف في جبل لبنان، واعترف بكل امتيازاته المتوارثة في ادارة منطقته وفق تقاليد اجداده التي ترجع إلى عهد المماليك. وقد اشترط السلطان سليم على الأمير فخر الدين، دفع جزء من الضرائب التي يحصلها لخزينة الدولة. ولم يكن هذا الوضع استثنائياً في جبل لبنان، كما يشير المؤرخ وجيه كوثراني، وانما كان سياسة تقليدية سارت عليه الدولة العثمانية في مراحل سيطرتها الاولى على الوطن العربي وجودة وخاصة في المناطق الجبلية المعقدة، كما سبق ان قدمنا. فقد ارتكزت الادارة العثمانية إلى الزعامات المحلية التقليدية المتعاونة معها في بعض المناطق العربية ولم تحاول الغاءها، وإنما حافظت على وجودها مستكينة ابان قوة الدولة ضمن الاطار العثماني، الا ان هذه الزعامات المحلية بدأت تتحرك منذ الربع الاخير من القرن السادس عشر حين ضعفت الدولة العثمانية وانشغلت بحروبها الطويلة على الجبهتين الايرانية والنمساوية. ففي جبل لبنان سعى الأمير فخر الدين المعنى الثاني المعروف بالكبير (١٥٧٢ — ١٦٣٥م) إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية محاولاً تأسيس دولة قوية تضم لبنان وسوريا وفلسطين.

لقد استطاع امير الشوف فخر الدين المعني الثاني، وكان سياسياً ماهراً ان يغلب بحق (الامير الكبير) على مقاطعات تخطت حدودها منطقة جبل لبنان ووصلت إلى شمالي سوريا وداخل فلسطين وابواب دمشق. وهذا التوسع الكبير خارج اطار جبل لبنان جعل مشايخ المنطقة والبيوتات الأرستقراطية الدرزية والمارونية وغيرهما يدينون بالولاء له واصبحوا يلتزمون بدفع الضرائب المترتبة عليهم له لقاء اداراتهم شؤون مقاطعتهم. كما اتصل الأمير

بدولة توسكانيا الأيطالية وعقد معها اتفاقية سرية سنة ١٦٠٨م تقتضي بتزويده بالمعدات والقطع البحرية . وقد تصرف لانشاء الحصون وتقوية جيشه الذي بلغ تعداده انذاك (٤٠) الف مقاتل .

ان ذلك الأتجاه الأستقلالي ادى إلى حدوث صراع شديد بين الأمير فخر الدين ووالي دمشق . ففي سنة ١٦١٣م طلبت الدولة العثمانية من والي دمشق أحمد حافظ باشا التوجه نحو جبل لبنان والقضاء على الأمير فخرالدين. كما اوعزت إلى ولاة حلب وديار بكر وطرابلس بمؤازرة والي دمشق في مهمته وتألفت قوة قوامها ثلاثون الف مقاتل . وقد استطاع الأمير فخرالدين الصمود امامها قرابة تسعة أشهر اضطر بعدها إلى مغادرة حلب إلى ايطاليا وبعد خمس سنوات صدر العفو عنه ، حين تسلم العرش العثماني عثمان الثاني (١٦١٨ — ١٦٢٢م) فعاد إلى لبنان ، ولم يكد يسترجع ممتلكاته حتى صار يعني بها ، ووضع خطة لتطويرها اقتصادياً ، وشجع التجارة الخارجية واندفع في تحديث البلاد وأرسل مجموعة من الشباب للدراسة في ايطاليا ، ثم أعلن التمرد على الدولة العثمانية سنة ١٦٣٥ م، الا أنه فشل ، وتمكن العثمانيون من شنقه .

لقد عاد الحكم العثماني المباشر إلى جبل لبنان . لكن العثمانيين استعانوا بالامراء الشهابيين الذين خلفوا المعنيين ، في الوفاء بالتزامات المنطقة المالية تجاه الدولة العثمانية . وقد ساءت اوضاع البلاد وتدهور اقتصادها عبر الحملات العسكرية العديدة التي شنها الولاة العثمانيون على بقايا المعنيين فقد عمد احمد باشا الكوبرلي والي دمشق إلى تشريد العديد من العوائل عن ديارها وقطع نحوا من خمسين الف شجرة توت ، كانت تمثل مصدر ثروة للبلاد . وقد استمرت هذه الأوضاع القلقة حتى بروز زعامة الأمير بشير الثاني الشهابي الذي تولى صيدا ومد نفوذه حتى اصبح السيد المطاع في الديار الشامية .

لقد تعاون الأمير بشير الشهابي مع محمد علي ابان سيطرته على بلاد

الشام سنة ١٨٣١م . فقد التحق مع ابراهيم باشا بن محمد علي الف مقاتل لبناني ، احتل بهم طرابلس كما اشترك الشهابيون في قمع العديد من الانتفاضات التي حدثت ضد ابراهيم باشا في عكا وصافيتا وجبال النصيرية سنة ١٨٣٣م .

ان انهيار حكم محمد علي باشا في بلاد الشام ، كان ايذاناً بنهاية الامير بشير الشهابي ، ففي ١٠ تشرين الاول ١٨٤٠م هزمت القوات المصرية في معركة (بحر صاف) بالمتن ولم يمض يومان حتى غادر الامير بشير بيت الدين إلى صيدا ومن ثم إلى منفاه في مالطا .

وفي مؤتمر لندن في ١٥ تموز ١٨٤٠ ، الذي كرس للبحث في مصير الحكم المصري للشام ، وحضره كل من ممثلي الدول العثمانية ، والنمساوية ، والبروسية والانكليزية ، وقع الاختيار على الامير بشير الشهابي الثالث ، ليكون حاكماً على لبنان . وفي ٣ ايلول ١٨٤٠م صدر فرمان سلطاني بذلك . وكان الامير بشير الثالث معروفاً بالضعف وعدم الكفاءة ، لذلك استخدم لتنفيذ سياسة الدول الاوربية الكبرى ومصالحها في لبنان . وقد مهدت تلك الظروف ، كما سنرى . إلى افساح المجال للدول الاجنبية للتدخل في شؤون البلاد الداخلية واثارة النعرات الطائفية بين الموارنة والدروز .

اما الامير بشير الشهابي فقد ارسل من منفاه في ٢٧ اذار ١٨٤١م رسالة إلى اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا يلتمس فيها اعادته إلى حكم البلاد الا ان بالمرستون اجاب على ذلك في ٢٩ نيسان ١٨٤١م مشيراً إلى موقفه من الحكم المصري طالباً منه ان يتحمل مسؤولية عمله . وفي ١٦ كانون الثاني ١٨٤٢م سقط الشهابيون تحت وطأة المشاكل الطائفية التي اججتها القوى الاستعمارية الاوربية ، فكانت هذه فرصة للعثمانيين اعادوا فيها حكمهم المباشر إلى لبنان فأقالوا بشير الثالث من منصبه وعينوا عمر باشا حاكماً على لبنان . الا ان ذلك لم يدم طويلاً فقد وقعت اضطرابات طائفية دامية كان اشدها هولاً ماحدث من مذابح سنة ١٨٦٠م في دير القمر والشوف والمتن والبقاع وزحلة وغيرها ، الامر الذي ادى إلى تدخل الدول الاوربية وفي مقدمتها فرنسا التي ارسلت اسطولها الى ساحل لبنان مما اجبر الدولة العثمانية عام ١٨٦١ على الاعتراف باستقلال جبل لبنان ١٠٣٠

فرنسا التي ارسلت قطعاً من اسطولها الحربي إلى الساحل اللبناني ، فاضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف سنة ١٨٦١م باستقلال جبل لبنان وبوجب نظام اداري طائفي خاص.

العظم في سوريا :

في سوريا ، فقد حدث تطور مشابه لما حدث في بعض الولايات الاخرى . اذ اشتد الصراع بين الانكشارية والقوى المحلية وكان من ثمار هذا الصراع والفوضى الناجمة عنه ، لان ذلك يسيء الى السلطان حيث ان دمشق كانت انذاك مركزاً لتجمع قوافل الحج والحجاج وما تتعرض لسلب عشائر بادية الشام . لذلك عزل السلطان الوالي من قبل الفوضى وهو نصوح باشا الذي حكم ولاية الشام بين ١٧١٧م وقد حكم دمشق بعد نصوح باشا ولاة عديدون لم يشتهر منهم اخرهم عثمان باشا الذي حكم بين ١٧٢٣ و١٧٢٥م ، وقد ثار عليه اهالي دمشق الابتزاز فتقم عليه الدمشقيون واضطر السلطان احمد الثالث اواخر ايار ١٧٢٥م وتعيين اسماعيل باشا العظم مكانه في ايار ١٧٢٥م فحكم بالعدل فاحبه الناس . وقد استطاع السيطرة على دمشق مستعيناً بالعشائر العربية والمماليك البوشناق . واسرة العظم عربية من قبيلة الجوالية واسمها عزيم ال قونية في الاناضول ومنها قدم اجداده بعد استيلاء السلطان سليم عليها فكان منهم ولاة دمشق . وكان الكثير من الاراضي والمزارع ووسعت اوقافها الذرية والخيرية وغيرها من المدن السورية . هذا وقد استمرت اسرة العظم في دمشق حتى اواخر القرن الثامن عشر وقد ساعدها على ذلك حاجة السلطان للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته الاستقلالية .

القرامنلية في طرابلس :

طرابلس الغرب استطاعت اسرة محلية الاصل الى الحكم [illegible]

الاسرة القرامنلية التي حكمت من ١٧١١ إلى ١٨٣٥م. وقد توسع نفوذ هذه الاسرة، واصبحت علاقتها بالدولة العثمانية علاقة اسمية، وعلى اثر احتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠م ظهر امام العثمانيين خطر الدول الاستعمارية. وادى ذلك، اضافة إلى نمو خطر محمد علي باشا في مصر ومحاولاته التوسعية لاقامة الدولة العربية الموحدة، إلى اهتمام العثمانيين باعادة سيطرتهم إلى ليبيا. لذلك وجه السلطان محمود الثاني اسطولاً بقيادة نجيب باشا قائد البحرية العثمانية إلى ميناء طرابلس سنة ١٨٣٥م وقد تمكنت هذه القوة من اعادة الحكم العثماني المباشر إلى ليبيا فبدأ بذلك العهد العثماني وهو عهد الولاة الاتراك الذي استمر حتى الغزو الايطالي لليبيا سنة ١٩١١م.

٨ ـ **الاسرة الحسينية في تونس :**

اما في تونس فقد نجح الاهالي في فرض احد الرجال العسكريين حاكماً او لايتهم ولقبوه بالباي. وقد اضطرت الدولة العثمانية سنة ١٥٩٠م إلى الاعتراف به حاكما على تونس. وبمرور الزمن زادت سلطة (البكوات) وهم المسؤولون عن الادارة وجمع الضرائب إلى درجة تولي السلطة. وقد عمد احدهم وهو مراد بك سنة ١٦٤٠م إلى جعل الحكم في تونس وراثياً فنشأت بذلك الاسرة المرادية. ومع ان هذه الاسرة حاولت اصلاح شؤون البلاد الا انها ما لبثت ان دخلت في نزاعات عائلية حتى اواخر حكمها حيث تمت مبايعة باي جديد في ١٣ تموز ١٧٠٥م وهو حسين بن علي مؤسس الاسرة الحسينية (١٧٠٥ ـ ١٨٨١م).

يعد حمودة باشا الحسيني، اشهر بايات تونس. وفترة حكمه الممتدة من ١٧٨٢ الى ١٨١٤م تمثل اهمية كبيرة في تاريخ تونس الحديث. فهو اول من جند العرب بدلاً من الانكشارية في الجيش، وحين حاول الانكشاريون التمرد عليه سنة ١٨١١م استند الى قواته العربية التونسية في القضاء عليهم. ولقد ساعد هذا العامل فيما بعد على اقامة توازن داخلي في تونس رغم احتفاظها بعلاقاتها الرسمية مع الدولة العثمانية. وقد رافق هذا الميل الى الاستعانة بالعرب في الجيش والمناصب الادارية استخدام اللغة العربية لغة للبلاد بدلاً من اللغة

التركية. فعندما حل القرن التاسع عشر كانت اكثر المعاملات الادارية والمخاطبات الدبلوماسية تكتب بالعربية. وقد كان لحمودة باشا الدور الكبير في دفع هذا الاتجاه الى الامام. ولم تقف تدابيره عند هذا الحد بل عمدت الى احداث تغييرات في مجالات عسكرية واقتصادية واجتماعية. ومن هذا القبيل سياسته الناجحة في تسليح الجيش باحداث الأسلحة الاوربية وجلبه الخبراء والمهندسين والاطباء للعمل في تونس وانشاؤه للمصانع الحربية واصلاحه للموانيء والابراج وبسطه للامن وانعاشه لاقتصاد تونس بتأمين أسعار رابحة وأسواق خارجية للانتاج الزراعي التونسي وخاصة بعد سنة ١٧٨٧م والحيلولة دون التسلط الاجنبي الاوربي على الاقتصاد التونسي وخوضه الحرب ضد البندقية (١٧٨٤ — ١٧٩٢م)لتحقيق هذا الغرض. كما افاد حمودة باشا من ظروف ضعف الدولة العثمانية وتقهقرها في الداخل والخارج وانشغال الدول الاوربية في الحروب الطاحنة التي اجتاحتها بعد الثورةالفرنسية ١٧٨٩م لضمان استقلال تونس.

الا أن هذا كله لم يؤد الى الانفصال التام عن السلطنة العثمانية، وظلت خطب المساجد تمجد اسم السلطان، والنقود تسك وتحمل اسمه. وكان كل باي جديد يتلقى فرماناً سلطانياً من استانبول، كما ان اسطول تونس وجنودها يحارب في جيوش السلطان العثماني عند الضرورة. وحين حكم الباي أحمد تونس بين سنتي ١٨٣٧و١٨٥٥م كان المغرب العربي يعاني من نفوذ أوربي شديد، خاصة بعد دخول فرنسا الى الجزائر سنة ١٨٣٠م،لذلك اصبح التكيف مع الاوضاع الجديدة، والتفاهم مع أوربا القوية، يفوق الاعتبارات الاخرى التي كانت تربط تونس بالدولة العثمانية. الا أن خيرالدين التونسي الذى شغل منصب رئيس الوزراء في تونس خلال الفترة الممتدة من سنة ١٨٧٣ حتى ١٨٧٧م استطاع بفضل وعيه وحكمته وتجاربه ان يخطو خطوات جدية لتحديث تونس وتهيئتها لتقبل الكثير من مفاهيم النهضة الاوربية الحديثة دون التخلي عن الرابطة العثمانية التي وجد فيها، كما سنرى، قوة للوقوف في وجه الغرب الاستعماري.

مصادر الفصل الثاني

نظم الحكم والإدارة العثمـــ

(١) أحمد، ابراهيم خليل : تطور التعليم الوطني في
(البصرة ، ١٩٨٢م) .

(١) احمد، ابراهيم خليل، : ولاية الموصل : دراسة في
ـ ١٩٢٢م رسالة ماجستير غير منش
سنة ١٩٧٥م .

(٢) ارنولد، توماس : الخلافة ، ترجمة حسن
١٩٦١م).

(ارنولد، توماس : الدعوة إلى الاسلام ، تعريب
واخرون ، (القاهرة لا ت

(٦) الأمام، رشاد : حمودة باشا التجارية تع ا
المغربية تونس — عدد ٦ تسو

(١) الامام رشاد : سياسة حمودة باشا الحسيني
المجلة التاريخية المغربية ، تونس

(١) أياس ، محمد أحمد بن: بدائع الزهور
(القاهرة ، ١٣١١ هـ) .

(٨) البخيت ، محمد عدنان: (احداث طرابلس
مجلة مجمع اللغة العربية الأرد
الثاني / ١٩٧٨م .

(٩) الباروني ، أبو القاسم سعيد : حياة سليمان البا

(١٠) بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الاسلا
فارس ، ومنير البعلبكي ـ ١ د

اسطولها حول نفسها لترد فرنسا وان بالامكان تجنب الاصطدام باية قوة بحرية بريطانية في البحر المتوسط اذا ما احيطت الحملة بالكتمان والسرية التامة . كما ان تكاليف الحملة الفرنسية على مصر اقل من تكاليف الحملة على بريطانيا ، وان نتائج الحملة الاولى مضمونة بدرجة اكبر ،اذ ان احتلال مصر سيعوض فرنسا عما فقدته من مستعمرات في الهند وامريكا .وان تحويل التجارة العالمية الى مصر بشق قناة بين البحرين الاحمر والمتوسط سيفقد بريطانيا احتكارها لطريق رأس الرجاء الصالح وسيقضي على التجارة البريطانية حيث ان الطريق العالمي عبر مصر بعد شق القناة سيغري الدول باستخدامه لانه اقل كلفة واقصر مسافة . وبوصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر تستطيع السفن الفرنسية الوصول الى الهند ومهاجمة انكلترا هناك . وكان بونابرت يعتقد كذلك ان بالامكان اقناع الدولة العثمانية بان غزو مصر ، ليس موجهاً ضدها وانما للقضاء على المماليك .. وازاء هذا المنطق من قائد عسكري لمع اسمه بعد انتصاراته العديدة للدفاع عن الجمهورية الفرنسية اقتنعت حكومة الادارة ووافقت على غزو مصر واتخاذها مركزاً للتوسع في الوطن العربي وقاعدة لضرب المصالح البريطانية في الهند والخليج العربي .

عينت حكومة الادارة الجنرال بونابرت قائداً لما عرف بـ«جيش الشرق» في ١٢ نيسان ١٧٩٨م وصدرت التعليمات موضحة اسباب الغزو كما يلي:

«ان حكومة الادارة لما رأته من ان البكوات المماليك الذين استولوا على حكومة مصر قد اتصلوا بالانكليز بأمتن الروابط ، وجعلوا انفسهم تحت مطلق تصرفهم. وانهم يرتكبون الاعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين ويضطهدونهم وينهبون اموالهم ويعتدون على ارواحهم ....» . وقد تضمنت التعليمات قيام بونابرت بقيادة الحملة واحتلال مصر وطرد الانكليز من جميع بلاد الشرق التي يستطيع الوصول اليها ، وهدم المراكز

التجارية العائدة لهم في البحر الاحمر وعهدت اليه مهمة حفر قناة خلال برزخ السويس واتخاذ كل الوسائل الضرورية لتأمين الاستخدام الحر والامثل للبحر الاحمر من قبل السفن الفرنسية .

١ـ عملية الغزو وظروفه :

ابحرت الحملة من ميناء طولون في جنوب فرنسا في ١٩ أيار سنة ١٧٩٨م بقيادة الجنرال نابليون بونابرت. وكانت الحملة مؤلفة من(٣٦,٠٠٠) مقاتل ١٠٠ لزمهم من الخيول والمدافع. ورافقها (١٤٦) عالماً وفناناً وجغرافياً وفلكياً وجيولوجياً وطبياً فضلاً عن معاملهم وادواتهم العلمية. وكان معظمهم من اعضاء المجمع العلمي الفرنسي وقد استولت الحملة الفرنسية في طريقها على جزيرة مالطة في ٩ حزيران سنة ١٧٩٨م واتخذتها قاعدة في الطريق بين فرنسا ومصر. كما واستصحب بونابرت معه عدداً من سكانها العرب للاستفادة منهم في الترجمة والتفاهم مع المصريين. وكانت الحملة في تحركها من طولون نحو مصر تحيط نفسها بدرجة عالية من الكتمان والحذر خوفاً من مطاردة الاسطول البريطاني الذي كان يجوب البحر المتوسط أنذاك بقيادة الاميرال نلسون Nilson وقد اقلعت باتجاه كريت للافلات من الاسطول البريطاني. وفي اواخر شهر حزيران اقتربت من الشواطئ المصرية عند مدينة الاسكندرية. وقد علم بونابرت بان الاسطول البريطاني قد سبق وصول الحملة الفرنسية الى ميناء الاسكندرية بثلاثة ايام ، وانه غادر الميناء المذكور بحثاً عن الاسطول الفرنسي في شواطئ البحر المتوسط .

بدأ انزال الجيش الفرنسي بالقرب من الاسكندرية. في اول تموز ١٧٩٨. وقد استعد اهالي الاسكندرية للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ، ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال . واستغاث السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بالمماليك في القاهرة لارسال قوات كافية تساعده في المقاومة ،

محمد كريم حاكم الاسكندرية

الا ان حكام مصر من المماليك استهانوا بالامر وقالوا انهم سيقذفون الفرنسيين في البحر ، وان مصيرهم سيكون مصير لويس التاسع وجيشه .

لقد عانت مصر ، بعد عودة المماليك إلى حكمها من فوضى سياسية وتخلف اقتصادي وجمود ثقافي . وفي الوقت الذي كانت جحافل بونابرت تطرق أبوابها كان يتنازع الحكم فيها أميران من المماليك هما ابراهيم بك ومراد بك . ولم يكن مراد بك بمستوى المسؤولية حين حذره المسيو روستي Rosetti قنصل النمسا في القاهرة من ان بونابرت قادم إلى مصر . فقد اجاب على هذا التحذير قائلا :

«ماذا تريد من اخافتنا من الفرنسيين ؟ اليسوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا؟ انه ليكفيني اذا نزلوا إلى سواحل مصر في مائة الف من رجالهم ان ابعث للقائهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم» .

وحين حاول المسيوروستي اقناعه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المبين في ايطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد رؤيتهم في اسواق القاهرة ، والح عليه بتحصين الاسكندرية ... أرسل إلى الاسكندرية قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها . وفي هذا دلالة واضحة على ان المماليك كانوا يعيشون منعزلين عن احداث اوربا وتطورها في مختلف الميادين ، لا سيما العسكرية منها .

ومهما يكن ، فقد اعتمد المصريون على انفسهم في الدفاع عن وطنهم ضد الغزو الفرنسي ، فبعد مقاومة عنيفة من سكان الاسكندرية ، استطاع بونابرت دخول المدينة . وقد فقد الفرنسيون في معارك المقاومة المصرية قرابة مائة وعشرين قتيلا وجريحاً . اما رجال المقاومة فقد خسروا ما بين سبعمائة وثمانمائة بين قتيل وجريح . وقد اعتصم السيد محمد كريم في رهط من اتباعه بقلعة قاتيباى احتجاجاً على الاحتلال واعلنت الاسكندرية مدينة مفتوحة وسلمت بواسطة ادريس بك قائد احدى السفن العثمانية التي كانت راسية هناك . وقد شهد قواد الغزو باستماتة اهالي الاسكندرية في

الدفاع عن مدينتهم. وإلى شيء من هذا القبيل يشير الجنرال مينو في تقريره إلى بونابرت فيقول :

«ان الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الاقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التي كانت تحيط بهم لان الاعداء (يعني : اهالي الاسكندرية) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة وثبات عظيم» .

واصل بونابرت زحفه نحو القاهرة، وقد واجه جيشه صعوبات جمة لشدة الحر وقلة الماء والغذاء. وكان ابناء العشائر العربية المنتشرة على الطريق بين الاسكندرية والقاهرة يتعقبون الجنود الفرنسيين ويغيرون عليهم. والقرب من أهرام الجيزة وفي موقع غير بعيد عن القاهرة حدثت المعركة الفاصلة وهي معركة الأهرام او امبابة. وفيها اصطدم النظام العسكري المملوكي المتخلف بالنظام العسكري الفرنسي الحديث. وانكشف امر المماليك، فلم يصمدوا طويلاً وانقسموا إلى شطرين رحل الاول إلى الشام بقيادة ابراهيم بك، وتراجع الثاني إلى الصعيد بقيادة مراد بك. وقد تكبد المماليك خسائر جسيمة خلافاً للفرنسيين الذين كانت خسائرهم طفيفة. وهكذا انسطرت إلى الاستسلام، فدخلها الفرنسيون في ٢١ تموز ١٧٩٨م .

وزع بونابرت منذ اول يوم لنزول قواته ارض مصر منشوراً باللغة العربية، اعده المستشرقون الذين رافقوه، وطبعت نسخ منه كثيرة. وفي هذا المنشور، اقترنت وبشكل غريب افكار الثورة الفرنسية في الحرية والاخاء والمساواة مع تهديدات المحتل الغاصب وحيل السماسرة المحترفين وتلاعبهم بعواطف الناس ومشاعرهم الدينية. وقد نقل الجبرتي المنشور بحذافيره، ومما جاء فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على اساس الحرية والتسوية (المساواة) السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرت. يعرف اهالي مصر

جميعهم أن من زمان مديد ، السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية ، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة (يعني : الرعايا) الفرنساوية ، ويظالمون تجارها بانواع الايذاء والتعدي . فحضرت الان ساعة عقوبتهم وانحرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك ... يفسدون في الاقليم الحسن... فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم... يا ايها المصريون ... انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ... » .

ومما جاء في النداء كذلك :

«...ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ...طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم ...لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في خسارتنا ، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولايبقى منها اثر ... وكل قرية تقوم (يعني تثور) على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار ...» .

وشرع بونابرت بعد دخوله القاهرة بنظم ادارة مصر . وكان من اهم اجراءاته تشكيل ديوان لحكومة القاهرة ودواوين في المديريات المصرية تعمل الى جانب الحكام العسكريين الفرنسيين وقد دعا الى اجتماع عام يعقد في القاهرة من «الاشخاص الذين لهم نفوذ بين الاهالي ، ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمي وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين» . وكان هدفه من ذلك استشارتهم في التكييف النهائي للدواوين وفي وضع الجهاز الاداري والمالي للحكومة . وعين بونابرت اثنين من علماء الحملة الفرنسية لحضور المناقشات وتوجيهها . وضمن تعليماته في رسالة لهما قال فيها :

«ان الغرض من عقد الديوان هو تعويد الاعيان المصريين على نظم المجالس الشورية والحكم . فقولوا لهم : اني دعوتهم لاستشارتهم وتلقي ارائهم فيما

...د على الشعب بالسعادة والرفاهية ، وما يفكرون في عمله اذ كان لنا حق النصر الذي حزناه في ميدان القتال » .

وحدد بونابرت المسائل التي ينبغي على الديوان العام ان يبدي رأيه فيها ، وهي كما جاء في التعليمات :

«اولاً : ما هو اصلح نظام لتأليف مجالس الديوان في المديريات

ثانياً : ما هو النظام الذي يجب وضعه للقضاء المدني والجنائي .

ثالثاً : ما هو التشريع الذي يكفل ضبط المواريث ، ومحو انواع الشكاوي ، الاجحاف الموجودة في النظام المالي .

رابعاً : ما هي الاصلاحات والاقتراحات التي يراها الديوان لاثبات العقارات ، فرض الضرائب . ويجب ان تفهموا الاعضاء باننا لانقصد الا توفير السعادة ، الرفاهية للبلاد التي تشكو من سوء نظام الضرائب الحالي. كما تشكو من طريقة تحصيلها . وعليكم ان تضعوا للديوان نظامه الداخلي كما يأتي : «ان ينتخب الاعضاء رئيساً له ونائباً للرئيس وسكرتيرين، ومترجمين اثنين وثلاثة ، اقبين . وان يكون ذلك بطريقة الاقتراح وبكل مظاهر الانتخاب ، وعليكم ان تتبعوا المناقشات وتدونوا اسماء الاعضاء الذين يمتازون عن زملائهم في الديوان سواء بنفوذهم او بكفايتهم» .

واعتقد بعض المؤرخين ان بونابرت ، حاول ايجاد نظام جديد يحل ...ل نظام الحكم العثماني البالي، ويولد في احضان الجمهورية الفرنسية وفق ...ادئ التي اعلنتها الثورة الفرنسية. ولكنه اصطدم بالمقاومة الشعبية وفشل ...ي مهمته. وظل المصريون يعتقدون ان الفرنسيين اجانب عنهم واعداء ...دين الاسلامي والواجب يقتضي طردهم من البلاد. ومهما يكن، فإن السلطة الفعلية ظلت بوجه عام في يد قوات الاحتلال وان سلطة ديوان بونابرت الذي تألف في ٤ أيلول سنة ١٧٩٨م لم تكن تتعدى مدينة القاهرة، ...ن استشارية ومقيدة يتعهد اعضائه ان لايعملوا اي شيء ضد مصلحة

الجيش الفرنسي. فضلا عن انهم كانوا يعملون ريادة لذا يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي «بعين من الفرنسيين وتحت المراقبة المستمرة» . وكان طبيعياً ان يضم الديوان الاعيان والملاك والتجار والمشايخ والعلماء الذين رحبوا بالاحتلال وسلموا القاهرة دون مقاومة. وقد وصل عدد اعضاء الديوان العام إلى (٢٥) عضواً، تسعة منهم عن القاهرة وواحد من كل مديرية من المديريات الست عشرة، بحيث يكون ثلث اعضائه من مشايخ البلاد وثلثهم من التجار، والباقي من رجال الازهر. ويختار الديوان العام من بينه تسعة أعضاء يتألف منهم الديوان الخاص، الذي يجتمع باستمرار في القاهرة. ويكون في كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة اعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة في كل مديرية من العلماء والائمة والمشايخ واكابر التجار والصناع واعيانهم .

وبعد سقوط القاهرة بقليل وصلت انباء الى بونابرت تفيد بأن الاسطول البريطاني بقيادة (نلسون) قد عاد الى الاسكندرية، ودمر الاسطول الفرنسي في موقعة ابن قير البحرية في اول آب سنة ١٧٩٨ م . وكان لهذه الموقعة اثر كبير في القضاء على مشروع الفرنسيين بارسال حملة الى الهند لاخراج الانكليز. وكانت لها نتائج خطيرة على الجيش الفرنسي الموجود في مصر، اذ قطعت الصلة بينه وبين فرنسا نفسها، واضطر بونابرت إلى الاعتماد على مصر في تموين جيشه، ولم تقف اثار هذه المعركة عند هذا بل جعلت السلطان العثماني يعقد تحالفاً مع روسيا ضد فرنسا في ٢٣ كانون الاول سنة ١٧٩٨م، كما تم عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا والدولة العثمانية في ٥ كانون الثاني ١٧٩٩م تألفت من مقدمة وثلاث عشر مادة .

وقد اشارت المقدمة الى ان التحالف انما كان موجهاً ضد «الاعتداءات الغديدة الدنيئة التي قام بها الفرنسيون »ودلت المادة الاولى على ان المعاهدة كانت على نمط المعاهدة البريطانية — الروسية المنعقدة انذاك، اذ كان القصد تأليف تحالف ثلاثي تكون بريطانيا حلقة الوصل فيه .وفي المادة الثانية تعهدت

بريطانيا والدولة العثمانية تعهداً متقابلاً بضمان حدود ممتلكات كل منهما ، اذا كانت قبل غزو الفرنسيين لمصر ، وكانت هذه المادة ، كما يقول المؤرخ العراقي الدكتور زكي صالح . صراحة هي بيت القصيد . فقد نجح الانكليز في استمالة الباب العالي الى جانبهم ، واصبحت لهم السيطرة على مداخل الطريق البري الى الهند ، وقاموا في الهند نفسها بما ادى الى استقرار مركزهم ، هيبتهم هناك ثم تمكنوا من عقد اتفاق ودي مع ايران . وكذلك مع امامة عمان ، ووجهوا الى العراق لاول مرة ، كما سبق ان قدمنا ، انتباهاً دبلوماسياً خطيراً .

وبالرغم من محاولة القائم بالاعمال الفرنسي في استانبول المسيو روفين Ruffin افهام الحكومة العثمانية بان الحملة الفرنسية الموجهة الى مصر لم تكن ايها اهداف عدوانية ضد الدولة العثمانية ، وان الحكومة الفرنسية ترغب رغبة صادقة في ابقاء العلاقات الودية بينهما ، الا ان العثمانيين لم يقتنعوا بهذه الحجة ، واعتقلوا القناصل والرعايا الفرنسيين وصادروا ممتلكاتهم . وكان على بونابرت ان يتفرغ لمواجهة الاخطار الخارجية ، فضلاً عن الاوضاع الداخلية التي تمثلت بقيادة الثورة المصرية الاولى ضد الحكم الفرنسي .

الثورة الاولى :

كان لموقعة ابي قير تأثيرها على الشعب المصري حيث انها اججت نار الثورة في البلاد ، وشجعت المصريين على متابعة النضال ضد المحتل . وكان دخول السلطان العثماني الحرب ضد فرنسا من العوامل القوية التي ادت الى الثورة .

وكان من اسباب الثورة كذلك تذمر المصريين امن اجراءات الفرنسيين الاقتصادية والمالية ، اذا اراد بونابرت استغلال مصر لاعالة جيشه وتموينه خاصة بعد ان قطعت المواصلات بينه وبين فرنسا . ولذلك عمد الى تحصيل الاموال بمختلف الوسائل ففرض غرامات مالية على المدن وضرائب ثقيلة على الاراضي والعقارات والمهن والعرائض وغيرها . كما لجأ الى مصادرة

أموال كبار التجار والمشايخ الذين لم يرحبوا بالاحتلال امثال السيد المحروقي والشيخ السادات . ولعل ابرز مظهر من مظاهر الاستياء من الاحتلال الاحتجاج على السياسة الضرائبية ومحاولة الفرنسيين تنظيم الادارة وتسجيل الاملاك والرسوم على غرار ما كان سائداً في فرنسا ،وبطريقة لم يتعود عليها الناس مصر انذاك .هذا بالاضافة الى حالة الاضطراب والقلق والضيق الاقتصادي الناتج عن انقطاع التجارة بعد الحصار البحري الذي ضربه الاسطول البريطاني على السواحل المصرية .

صار الجامع الازهر ،ميداناً من ميادين الثورة ضد الغزو الفرنسي ؛ فسرعان ماتشكلت فيه لجان للمقاومة ،انضم اليها المشايخ والعلماء والائمة والمؤذنون واخذ الخطباء يحرصون الناس على الثورة ويثيرون الشكوك حول اعضاء ديوان القاهرة الذي شكله بونابرت ويتهمونهم بممالاة المحتلين ، واستفاد زعماء الثورة من فرصة تذمر الشعب من الضرائب والرسوم الجديدة فاعلنوا العصيان المدني في ٢١ تشرين الاول سنة ١٧٩٨م. فاقفلت الدكاكين وتجمع الالآف من ابناء الشعب ،وساروا في تظاهرة كبيرة الى مركز القيادة الفرنسية لاعلان تذمرهم من الضرائب والرسوم الجديدة ، وصارت القاهرة في ذلك اليوم في وضع لم تألفه من قبل ،حيث كان الناس يتلاقون على غير تعارف ويتبادلون الشكوى . واذا خطب واحد من رجال الدين تلقفت الجماهير المحتشدة خطابة بالحماس والتأييد .واقبل الفلاحون وسكان الضواحي الى القاهرة ليشتركوا في التجمهر ،وظهرت الاسلحة في كل مكان وقدم تقدم الثوار الى المخافر الفرنسية وقتلوا بعض حراسها واشتبكوا مع الجنود واطبقوا على حاكم القاهرة الفرنسي وقتلوه .وقد وصفت القاهرة ابان تلك الثورة في تقرير رسمي فرنسي بانها «اصبحت تشبه باريس خلال الايام الاولى من الثورة الفرنسية » «اذ احتشد (١٥) ألف ثائر في الجامع الازهر ، واقيمت المتاريس والحواجز حول الطرق المودية اليه ،وسارع الى القاهرة خمسة الاف فلاح من القرى المجاورة ،وبضعة الاف من البدو » .كما «هجم الفلاحون

المصريون على السعاة العسكريين والدوريات المسلحة ، واربكوا خطوط الاتصال الفرنسية ، وقتلوا الضباط والموظفين وجباة الضرائب الفرنسيين».

أسرع بونابرت في اتخاذ الاجراءات الكفيلة باخماد الثورة .وأمر جنوده باطلاق الرصاص على الثوار .وضرب الجامع الازهر بالمدافع . فأخذت الاف القنابل تنهال عليه وعلى الاحياء المجاورة له .حتى أوشك ان يتداعى . واستشهد الالاف من السكان تحت انقاض دورهم .وقد ارسل بونابرت حملات تنكيل الى الدلتا . وحرق ضباطه القرى الثائرة .

ازاء القسوة التي واجه بها بونابرت الثوار . الذين فقدوا اكثر من اربعة الاف شهيد ، تقدم عدد من المشايخ الى بونابرت وطلبوا منه وقف القتال . وبعد فشل الثورة فتك الجنود الفرنسيون بالمواطنين المصريين . ودخلوا الازهر وربطوا فيه خيولهم . ونهبوا ما فيه . واعدموا كثيراً من الناس بدون محاكمة بحجة رفعهم السلاح بوجه الفرنسيين .

لقد كان من نتائج الثورة . شعور بونابرت بانه يعيش على ارض ترفض العدوان وتقاومه . وصار كل فرنسي لايستطيع السير الا ومعه سلاحه .واخذ الفرنسيون يعاملون الناس بقسوة وصلف . وقطع بونابرت سياسة التودد والمجاملة التي حاول انتهاجها بعد دخوله القاهرة . وتشدد في معاقبة المحرضين . واعدم عدداً من المشايخ . وصادر املاكهم . وعطل ديوان القاهرة مدة شهرين . ثم اضطر الى اعادته في اواخر كانون الاول سنة ١٧٩٨م . وفي الوقت نفسه حاول زرع بذور الفرقة بين المسلمين والاقباط شأنه في ذلك شأن كل مستعمر يلجأ الى اسلوب التفرقة والطائفية لتثبيت حكمه . ولكن هذه السياسة لم تنطل على الشعب العربي في مصر . الذي قطع على بونابرت سبيل ذلك . واعلن تمسكه بمبدأ النضال ضد المستعمر . ولجأ الى التماسك والتعاون .

الغزو الفرنسي لسوريا :

قرر بونابرت غزو سوريا ، بعد ان اعلم بتحرك الجيوش العثمانية نحو مصر وذلك في شباط ١٧٩٩م . وكان يهدف من وراء حملته الى الشام احراج موقف الاسطول البريطاني في البحر المتوسط ، والحيلولة دون حصوله على المؤن والتجهيزات من الموانىء السورية .وقد سقطت العريش بيده والرملة وغزة ويافا . وفي اذار ضرب الحصار حول عكا واستمر كذلك ثلاثة شهور ثم اضطر الى الانسحاب امام حصونها المنيعة ومقاومة اهلها الباسلة وانتشار الطاعون بين جنوده ومساعدة الاسطول البريطاني لها بقيادة سدني سمث Smith وقد وقع بايدي الفرنسيين خلال الحصار ثلاثة آلاف أسير ، امر بونابرت باعدامهم جميعاً

وبعد عودته الى مصر قرر مغادرتها الى فرنسا ، بعد ان سمع بسخط الجيش الفرنسي على حكومه الادارة وفشلها في مواجهة الاضطرابات الداخلية ، وتألب القوى الاوربية عليها . وقد ترك بونابرت للجنرال كليبر امور قيادة الحملة في مصر .

الثورة الثانية وخروج الفرنسيين من مصر :

واجه الجنرال كليبر سنة ١٧٩٩م ثورة جديدة في القاهرة اطلق عليها المؤرخون ثورة القاهرة الثانية، وقد اقام الثوار المتاريس الحصينة، وانشأوا معملاً للبارود وآخر لأصلاح الاسلحة والمدافع .وصنع القنابل، جمعوا الحديد من الخوانيت وقدم الصناع ما لديهم من آلات وموازين، وتعاون المواطنون في تقديم المؤن والغذاء للثوار. ولكن الجنرال كليبر قاوم الثورة بقسوة شديدة، فطوق مدينة القاهرة، وقصفها بالمدفعية. وعمد إلى اضرام النار في الاحياء الثائرة، حتى ان كثيراً من السكان ماتوا تحت الانقاض .

ومهما يكن، فقد شعر كليبر بعدم قدرته على البقاء في ارض مصر. فبعث برسالة إلى الحكومة العثمانية طالباً فيها انهاء الحرب بين الدولتين .

جدير ذكره ان بونابرت نفسه، منذ الاشهر الاولى التي اعقبت الغزو لمصر، حاول ان يصل مع الباب العالي إلى تفاهم يؤدي إلى استمرار الوجود الفرنسي في مصر الا انه فشل في ذلك .

بدأت المفاوضات الفرنسية — العثمانية وانتهت بعقد معاهدة العريش كانون الثاني سنة ١٨٠٠م. وخلاصتها : الموافقة على جلاء الفرنسيين بكامل اسلحتهم وامتعتهم على سفن فرنسية وعثمانية بدون قيد او شرط. ولكن الحكومة البريطانية تدخلت، وطلبت تسليم الفرنسيين انفسهم واسلحتهم اعتبارهم حرب فرفض الفرنسيون ذلك . وكان الانكليز يعتقدون بان وجود الجيش الفرنسي في مصر مفيد لهم ، اذ ان ذلك يحول دون اشتراكه في الحروب الدائرة في اوربا ضد بريطانيا وحلفائها . ولكن بعد سنة ١٨٠١م تغير الموقف في اوربا ، عندما بدأت خطوات الصلح بين بريطانيا وفرنسا تسير بسرعة، واصبح الوجود الفرنسي في مصر ذا وزن كبير في المفاوضات البريطانية — الفرنسية لذلك، وتم الاتفاق سنة ١٨٠١م على جلاء الجيش الفرنسي بكامل اسلحته على سفن بريطانية . وبعد الجلاء المذكور نجحت المفاوضات البريطانية — الفرنسية وعقد صلح اميان في ٢٧ آذار سنة ١٨٠٢م.

اما السلطان العثماني سليم الثالث ، فقد سعى إلى عقد اتفاقية جديدة مع فرنسا في حزيران سنة ١٨٠٢م . وبذلك انتهت حالة الحرب بين الدولتين ووضعت اسس التعاون الفرنسي — العثماني في معاهدة جديدة اصبحت اساساً لما سمي فيما بعد بـ« الامتيازات الاجنبية» اذ اصبحت فرنسا الدولة الاكثر رعاية في الاراضي العثمانية وتم تثبيت مطالب فرنسا في الملاحة في البحر الاسود .

اثار الغزو الفرنسي ونتائجـــه :

بالرغم من فشل الغزو سياسيا وعسكرياً ، فانه ترك اثاراً مهمة في مصر والوطن العربي كله . فقد شبهت مصر قبل الغزو بحالة رجل مريض في غرفة مظلمة موصدة النوافذ والابواب ، تفتك به الحمى ، ويكاد يختنق

أما العثمانيون في بلاد الشام فكانوا يجهزون حملة ضد الجيش الفرنسي في مصر وعندما علم نابليون بذلك توجه الى بلاد الشام فاحتل مناطق فلسطين لكنه لم يستطع السيطرة على عكا التي فرض عليها حصارا لمدة ثلاثة أشهر ، وبعد ذلك عاد نابليون الى مصر وبعد حصوله على معلومات تفيد بان حربا عامة اندلعت في أوروبا ضد فرنسا غادر بونابرت مصر سرا الى بلاده تاركا قيادة الحملة الى الجنرال كليبر الذي واجهته ثورة عارمة أخرى سنة (١٧٩٩) عرفت بثورة القاهرة الثانية وكانت المقاومة هذه المرة ذات نشاط كبير فشعر كليبر بعدم القدرة على البقاء في مصر فأرسل الى العثمانيين يطلب منهم تسوية النزاع القائم بين الدولتين فبدأت المفاوضات (الفرنسية العثمانية) سنة (١٨٠٠) والتي انتهت بعقد معاهدة العريش والتي نصت على :١- جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم وعودتهم الى فرنسا .
٢- هدنة ثلاث شهور قد تطول مدتها إذا لزم الأمر ويتم خلالها نقل الحملة عن مصر.
٣- الحصول من الباب العالي أو من حلفائه (الانكليز وروسيا) بعدم التعرض للجيش الفرنسي باي أذى. وهكذا تم الاتفاق على جلاء القوات الفرنسية من مصر سنة (١٨٠١).

وهنا لا بد أن نذكر بأنه لم يمضي على ثورة القاهرة الثانية إلا شهرين حتى اغتيل كليبر من قبل احد طلبة الازهر الشاميين وهو سليمان الحلبي في سنة (١٨٠٠) ومن المعتقد أن السلطات العثمانية كان لها يد في مصرع كليبر.

م - الاحتلال الفرنسي للجزائر :

كانت الجزائر إحدى الولايات الكبيرة التابعة للإمبراطورية العثمانية وواحدة من أغنى ممتلكاتها ، إلا إنها أخذت تعاني من تدهورات خطيرة في نهاية القرن الثامن عشر إذ انخفض المستوى الاقتصادي فيها بسبب توقف النمو الحرفي وازدياد منافسة المنتجات الأوربية التي جعلت الحياة الإقتصادية تصاب بالركود فكانت الجزائر أول دولة تقع تحت السيطرة الاستعمارية في المغرب العربي.

أما الأسباب والدوافع الحقيقية للغزو الفرنسي للجزائر هو ما كانت تمارسه الجزائر من مقاومة في البحر فضلا عن قضية الحسابات النقدية المضطربة لحكومة الداي الجزائري الذي لم يرغب بتسديد الديون لفرنسا، وقد استغرق النزاع بين الطرفين على الديون فترة طويلة فاخذ السفير الفرنسي (بير دوفال) يدبر المكائد حتى انه استفز الداي متعمدا أهانته مم أدى بالداي إلى ضربه بالمروحة التي كانت بيده على رأسه وقد عرفت هذه الحادثة بحادثة المروحة الشهيرة والتي اتخذت سببا مباشرا لقطع العلاقات واعتبرته اهانة لشرف فرنسا فضربت حصارا بحريا على الجزائر وقاموا بغزوها في (١٤ حزيران ١٨٣٠) بعد أن جهزوا جيشا قدر بـ (١٣٧) الف مقاتل نزل على المنطقة الساحلية بقيادة الجنرال ديبرمون ، وفي (٤

تموز ١٨٣٠) سقطت قلعة القصبة التي كانت فيها قصر الداي الجزائري الذي وقع على وثيقة الاستسلام دون قيد أو شرط.

دخل الفرنسيون المدينة في (٥ تموز ١٨٣١) فاستولى الفرنسيون على أملاك الدولة كاملة أما الداي فقد وضع حاشيته وأهله في إحدى السفن ، وفي سنة (١٨٣٤) أعلن ضم الجزائر رسميا إلى فرنسا وبدا تنظيم الإدارة المدنية فيها برئاسة الحاكم العام وعلى الرغم من استمرار الاستعمار الفرنسي على الجزائر إلا انه لم يستطع من فرض سيطرته على بعض أقسام البلاد بسبب توحد فصائل المقاومة ضد فرنسا فقد قاد المقاومة المسلحة في غرب الجزائر الأمير عبد القادر الجزائري أما في الشرق فقد قادها حاكم قسنطينة الباي احمد .

م - حركة الأمير عبد القادر الجزائري :-

ولد الأمير عبد القادر الجزائري سنة (١٨٠٨) وهو ابن الشريف محيي الدين شيخ القبيلة القادرية من قبيلة بني هاشم العربية قرب مدينة معسكر عاصمة وهران القديمة ،اتصف الفارس الجليل والقائد العسكري والخطيب المؤثر بسامعيه والكاتب الذي حصل ثقافة دينية من خلال قيامه برحلات واسعة إلى الحجاز والعراق ومصر، فضلا عن تأثره بإصلاحات محمد علي باشا التي أثرت في نفسه تأثيرا كبيرا.

مرت حركة النضال الجزائري بمرحلتين :-

المرحلة الأولى:- بدأت بمبايعته حتى سنة (١٨٣٩) حين بلغت ثورته ذروتها وحرر ثلثي الجزائر.

المرحلة الثانية :- بدأت من سنة (١٨٣٩) وانتهت سنة (١٨٤٧)عندما اضطر إلى تسليم نفسه للفرنسيين.

واجهت الأمير عبد القادر الجزائري صعوبات عديدة في بداية الأمر كان أهمها كيفية مواجهة المستعمر الحديث ومن هنا فقد ركز على مسالتين الأولى هي محاولة التغلب على الانقسام القبلي ، والثانية هي توحيد الشعب الجزائري تحت قيادته بهدف الدفاع عن استقلال وتحرر الوطن ، ولكن مع كل ذلك استطاع الأمير عبد القادر الجزائري من أن ينظم حركة المقاومة العربية وفي وقت قياسي من خلال إتباعه الخطوات الأساسية التالية:

١- رسم الخطط العسكرية وتنفيذها .
٢- عدم مواجهة العدو في الميدان المكشوف واستخدام عنصر المباغتة .
٣- توفير الاحتياط الكامل من حيث الأسلحة والذخائر .

٤- حاول أن يصل صوته (صوت المقاومة الوطنية) إلى كل العالم وان يبين عدالة القضية الجزائرية ودور المناضلين الجزائريين في الحصول على الاستقلال .

اتخذ الأمير عبد القادر الجزائري من مدينة معسكر عاصمة له نظم فيها الإدارة وأقام بها بعض مصانع الأسلحة والذخيرة، كما انه لجا في بعض الأحيان إلى مهادنة الفرنسيين من أجل كسب الوقت واستكمال قوته وتجهيز أنصاره بالسلاح، وعندما فشل الفرنسيون من احتلال مدينة معسكر طلبوا من عبد القادر الجزائري بعقد هدنة معهم الذي وافق على ذلك كمحاولة منه للسيطرة على الجزء الأكبر من الجزائر وقد انتهت المفاوضات الفرنسية الجزائرية بتوقيع معاهدة تافنا في (٣٠ أيار ١٨٣٧) والتي تركت فيها مدن الجزائر ووهران ومناطق ساحلية أخرى بيد الفرنسيين بينما ظلت بقية الأقاليم للأمير عبد القادر الجزائري، وقد استطاع الفرنسيون من الاستفادة من هذه المعاهدة حيث استطاعوا من احتلال مدينة قسنطينة بعد أشهر من توقيع معاهدة تافنا وفي الوقت نفسه فقد سمحت السلطة الفرنسية للمستوطنين الأجانب بالدخول إلى الجزائر وإعطائهم أراضي شاسعة في المنطقة المحيطة بالجزائر فعد ذلك نقضا للاتفاق مع الأمير عبد القادر الجزائري الذي قرر إعلان الحرب الشاملة في(تموز ١٨٣٩) خاصة بعد أن شرعت قبائل منطقة شرق الجزائر بخوض الحرب وجعلت عبد القادر قائدا لها، أما الفرنسيون فقد شنوا بالمقابل حربا مدمرة بقيادة الجنرال بوجو الذي عد السلب والنهب من وسائل الحرب المشروعة في الجزائر، ونتيجة لتفوق القوات الفرنسية تمكنوا من احتلال موقع القيادة للأمير عبد القادر الجزائري مما اضطره إلى الانسحاب إلى داخل الأراضي المراكشية واخذ من هناك يوجه المعارك ولكن سلطان مراكش بدا يعمل على طرده بالقوة حيث انه وقع اتفاقا مع الفرنسيين يلتزم فيه بعدم مساعدة المقاومة الجزائرية وعندها اضطر الأمير عبد القادر الجزائري إلى إلقاء السلاح وتسليم نفسه للفرنسيين سنة (١٨٤٧) حيث اخذ أسيرا إلى باريس ثم رحل إلى دمشق حيث توفي فيها، إلا أن المقاومة الجزائرية لم تنتهي إذ سرعان ما ظهرت مراكز جديدة من خلال الثورة التي تزعمها محمد بن احمد مقراني واستطاعت هذه الثورة من تحرير مساحات واسعة إلا إنها قمعت في النهاية من قبل الفرنسيين وبعد ذلك شجع الفرنسيون الهجرة الجماعية إلى الجزائر لترجيح كفة التوازن البشري لصالح المستوطنين .

م - الاحتلال الايطالي لليبيا سنة (١٩١١) :-

عززت ايطاليا علاقاتها الاقتصادية والثقافية مع ليبيا منذ أواخر القرن التاسع عشر ومن اجل تحقيق ذلك قامت بـ:-

١- انشاء فروعا لبنوكها منذ سنة (١٩٠٥).
٢- افتتاح قنصلية لها في كل من برقة وطرابلس .
٣- إنشاء المدارس الايطالية في ليبيا.
٤- تعزيز اللغة الايطالية في ليبيا .

٥-ارسال بعثات علمية وعسكرية سهلت فيما بعد عملية الاحتلال .

وجهت ايطاليا أنظارها إلى ليبيا في محاولة منها للتخلص من مشكلاتها الاقتصادية . فهي دولة متأخرة في صناعتها مقارنة مع الدول الأوربية وتعاني من مشكلة تزايد السكان فضلا عن محاولتها استعادة ماضيها الإمبراطوري خاصة بعد تحقيق وحدتها القومية سنة (١٨٦١) ،وبدا التفكير في إمكانية التدخل الايطالي في ليبيا بعد افتتاح قناة السويس سنة (١٨٦٩) حيث ظهر اتجاه في ايطاليا يدعوا إلى احتلال ليبيا خاصة وان الحرب أخذت تشتد بين فرنسا وايطاليا على شمال أفريقيا ثم جاء احتلال الفرنسيين لفاس في المغرب سنة (١٩١١) إنذارا ليقدم للايطاليين الفرصة لتحقيق أطماعهم في ليبيا .

أرسلت الحكومة الايطالية إنذارا إلى الحكومة العثمانية في (٢٧ أيلول ١٩١١) ادعوا فيه بان العثمانيون يعرقلون مصالحهم الاقتصادية في ليبيا ويضطهدون الرعايا الايطاليين وإنهم غير قادرين على حفظ الأمن هناك ، كان رد الحكومة العثمانية على الإنذار الايطالي ضعيفا وأعلنت عن استعدادها بمنح الايطاليين الامتيازات التي يريدونها ،إلا إن الحكومة الايطالية لم تقتنع بهذا الرد فاعلنت الحرب في (٢٩ أيلول ١٩١١) فوصل أسطولها إلى مدينة طرابلس وطلب من الصدر الأعظم إبراهيم حقي باشا بتسليم المدينة خلال (٢٤) ساعة ،وتمكنت القوات الايطالية من احتلال برقة وطرابلس من (١١ -١٣ تشرين الأول ١٩١١)كما قاموا باحتلال مدينتي طبرق وبنغازي بعد خسائر كبيرة تكبدها الايطاليون نتيجة المقاومة الشديدة التي أبداها السكان .

ظهرت المقاومة في عدد من المدن الليبية من بينها برقة التي خاض فيها المجاهدون معارك عديدة مع الايطاليين أهمها معركة (بومولياني)في (١٠ تشرين الثاني ١٩١١) وقد اضطرت الحكومة العثمانية إزاء ذلك إلى إرسال عدد من الضباط إلى ليبيا بهدف تنظيم حركة المقاومة ومن هؤلاء الضباط عزيز علي المصري ومصطفى كامل ، وقد استمرت هذه الحرب حتى (١٨ تشرين الثاني ١٩١٢) عندما وقع الايطاليون والعثمانيون معاهدة صلح اوشي (لوزان) بسويسرا وبموجبها تم اعتراف الحكومة العثمانية بالاحتلال الايطالي لليبيا على ان تبقى للسلطان العثماني السيادة الدينية وبذلك فقد أصبحت طرابلس وبرقة تحت السيادة الايطالية، أما المقاومة العربية في ليبيا بعد ذلك فإنها لم تنتهي فقد ظهرت مرة أخرى في طرابلس حيث قادها الشيخ سليمان الباروني الا ان هذه المقاومة قد سحقت على يد الايطاليين سنة (١٩١٣)، كما ظهرت المقاومة ايضا في برقة والتي تزعمها عزيز علي المصري القائد العربي المعروف في الجيش العثماني وباشراف الشيخ احمد السنوسي ،فضلا عن ظهور المقاومة في منطقة فزان والتي ترأسها السيد محمد بن عبد الله اليوسفي .

في مصر . كان لها عاملان اساسيان : اولهما التخلص من الحكم العثماني وهذا وعي انضجه وانماه الصراع الدامي الذي خاضه الشعب العربي في مصر مع الفرنسيين لاكثر من ثلاث سنوات . وثانيهما : الدافع الاقتصادي الممثل بالتخلص من الضرائب الباهظة التي فرضها الوالي العثماني على التجار واصحاب الحرف فاثقلت كواهلهم ؛ فضلا عن الاستغلال البشع الذي تعرض له الفلاحون وهم السواد الاعظم من ابناء الشعب .

رفض الشعب دفع الضرائب الجديدة . واقفلت المحلات ولجأ الناس الى الجامع الازهر . وقد وصف احد المؤرخين تلك الايام بقوله :

«وضج الناس وتكدروا مع ماهم فيه من وقف الحال وغلاء الاسعار في كل شيء ... فلم يفتحوا الحوانيت وانتظروا مايفعل بهم ؛ وحضرت منهم طائفة الى الجامع الازهر ، ومر الاغا والوالي ينادون بالامان وفتح الدكاكين ، فلم يفتح منهم الا القليل » .

وفشلت كل محاولات خورشيد باشا في التفاهم مع قادة المقاومة ان حاصرت الجماهير مندوبه اليهم ومرافقيه بالاحجار التي اخذت تنهال عليهم من كل جدب وصوب ، فتعذر عليهم الوصول الى الجامع الازهر وخرج الناس من بيوتهم يقيمون المتاريس في الشوارع ويحملون الدفوف والطبول والرايات ويدعون ويتضرعون ويقولون (يالطيف) . وشاركت جميع فئات الشعب في الثورة وتحولت القاهرة الى ميدان حرب . ولازم الناس السهر بالليل في الشوارع والحارات . ولم تنقطع المناوشات بينهم وبين جنود الوالي ، فقد سقط من الجنود خلال شهر واحد ثلاثمائة وخمسون قتيلا . وكان لابد للوالي من التراجع امام الاجماع الشعبي . فقرر اعفاء الفقراء من الضريبة ، ولكن عمر مكرم قال له : «ان هؤلاء الناس ، وارباب الحرف ، والصنائع كلهم فقراء . وماكفاهم ماهم فيه من القحط والكساد ووقف الحال حتى تطلب منهم مغارم لجوامك العسكر وماعلاقتهم بذلك .. وكان في رد عمر مكرم على الوالي العثماني ؛ كما يقول المؤرخ السوداني

مكي شبيكة : «حجة مقنعة لانه لايرى علاقة بين رواتب الجند والضرائب الباهظة على اصحاب الحرف البسيطة . فالجنود انذاك مصدر قلق واضطراب اكثر منهم حمـــاة للامن والقانون» . ومما يلحظ انه لم يكن في استطاعة خورشيد باشا الغاء الضرائب كلها اذ لم يكن يملك مايدفع منه مرتبات جنوده. عندئذ دعا عمر مكرم يوم ١٢ ايار سنة ١٨٠٥م الى عقد اجتماع يحضره القاضي وقادة المقاومة لدراسة وضع مصر ومستقبلها .

بعث الوالي بخمسة مندوبين لحضور الاجتماع الذي عقد في وضع كانت الجماهير فيه تطوف الشوارع والازقة مرددة هتافات معادية للعثمانيين ومن ذلك «يارب يامتجلي اهلك العثمانللي» و «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم» . ومهما يكن فقد اسفر الاجتماع عن التوقيع على وثيقة تضمنت مطالب الشعب . بعثوا بها الى الوالي ومما جاء فيها :

١ – عدم السماح للجنود بدخول مدينة القاهرة بسلاحهم .

٢ – عدم فرض اية ضريبة مالم تنل موافقة قادة المقاومة .

١ بروز محمد علي باشا :

رفض الوالي العثماني تنفيذ مطالب الشعب . فقرر الشعب عزله . اذ عقد زعماء المقاومة اجتماعاً في دار ضابط عثماني من اصل البباني . جاء الى مصر من القوات التي ارسلها السلطان ضمن الفرقة الالبانية لاخراج الفرنسيين منها عام ١٨٠١م اسمه (محمد علي) وكانت له علاقة طيبة بقادة الشعب من العلماء والتجار . وقد تحدث في الاجتماع عمر مكرم ودعا الى تعيين والي جديد . فقابل الجميع «الرأي ماتراه» فأشار الى محمد علي فوقع الاختيار عليه . كتبوا وثيقة بتاريخ ١٣ أيار ١٨٠٥م جاء فيها : «تم الامر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل . واقامه الاحكام والشرائع وانه متى خالف الشروط نخلعه واخرجوه وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن» . وبعد ان لاحظ السلطان العثماني سليم الثالث نمو دور الشعب في مصر وقوته التي اوصلت

محمد علي الى مركز الولاية . اضطر الى المصادقة على هذا التعيين وارسل فرماناً بذلك في تموز سنة ١٨٠٥م. ولقد كان تعيين الوالي الجديد . الذي أخذ عليه زعماء الشعب العهود والمواثيق ان يحكم بالعدل والابرم امراً الا بمشورتهم حدثاً مهماً في تاريـــــخ مصر الحديث، لان الشعب استطاع التعبير عن حقه في تقرير مصيره واختيار حاكمه بنفسه ، من خلال زعمائه وممثليه

في البدء اعتمد محمد علي على زعماء الشعب . وكان عليه مواجهة فلول المماليك الذين نجحوا في التخلص من مذابح الوالي العثماني بعد توسط الانكليز وعددهم (٢٥٠٠) مملوك . وقد تجمعوا في الصعيد . وبينما كان محمد علي منهمكاً في مطاردتهم جاءته أنباء الغزو البريطاني للشواطيء المصرية في اذار ١٨٠٧م بقيادة الاميرال فريزر وكما هومعروف فان بريطانيا، بعد ان تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا سنة ١٨٠٧م اعلنت الحرب على الدولة العثمانية ودخل الاسطول البريطاني بحر مرمرة لكنه فشل في الوصول الى استانبول ، عندها قرر الانكليز غزو مصر . وكان الجنرال فريزر على اتفاق سابق مع قادة المماليك المناوئين لمحمد علي. وفي ١٧ اذار ١٨٠٧م نجح الانكليز في انزال قوات قوامها خمسة الاف مقاتل الى الاسكندرية . وقد تقدمت القوات المصرية بقيادة محمد علي لمواجهة الغزاة الذين وجهوا وحدتين عسكريتين في اواخر اذار الى رشيد ، لكن المصريين تمكنوا من سحقهما وابادتهما والحيلولة دون تقدم قوات اخرى نحو القاهرة .. عندئذ اضطر الانكليز . ازاء المقاومة الانسحاب نحو الاسكندرية بعد آن اندحروا مرتين بالقرب من رشيد وزحف محمد علي بجيشه نحو الاسكندرية وفرض على القائد الانكليزي عقد الصلح والجلاء عن الاراضي المصرية في ايلول سنة ١٨٠٧م .

عمل محمد علي على توطيد نظامه والانفراد في السلطة ولم يمض وقت طويل حتى تخلص من زعماء الشعب وفي مقدمتهم عمر مكرم الذي نفاه

الى دمياط . كما دبر مايعرف بمذبحة المماليك سنة ١٨١١م وفتك بهم كما. تخلص من الجنود الالبانيين في اذار من السنة ذاتها بعد ان اصبحوا يميلون الى الشغب وعدم الخضوع للضبط العسكري .

حقاً كان لنجاح محمد علي في ايقاف الغزو البريطاني وتنظيم المقاومة ضده ووضع الحد لشغب وفساد المماليك والالبان ، والتفاف القوى الوطنية حوله أثر كبير في ارتفاع سمعته وازدياد شعبيته واقتناع الباب العالي بجدارته في حكم مصر .

٢ محاولات محمد علي لبناء الدولة الحديثة :

لاحظ محمد علي بما امتلك من مقدرة ونفاذ بصيرة نزوع اتجاهات الوعي الوطني والقومي في مصر الى الاستقلال . فلم ير بدا من السير في هذا الاتجاه سيراً واعياً . مسلماً بتفاصيلها مدركاً ابسط وادق حقائقها ، واذا كان لابد من الاستقلال فلابد من بناء الدولة القادرة على حماية الاستقلال . كانت جهوده لجعل مصر دولة حديثة . ومن هنا يعد حكمه في مصر (١٨٠٥ — ١٨٤٨)م نقطة تحول ليس في تاريخ مصر فحسب ، بل في تاريخ الوطن العربي كله . وقد بذل جهوداً كبيرة في تعزيز هيبة الدولة وتطوير اقتصاد البلاد . لذلك فقد استحق من المؤرخين لقب «مؤسس مصر الحديثة» « The fourder of Modem Egypt » واذا ازدنا التأكد من استحقاقه لهذا اللقب . علينا ان نستعرض سلسلة التغيرات التي انجزها على مختلف الاصعدة العسكرية والادارية والاقتصادية والتعليمية والتي اصابت بنية المجتمع المصري انذاك وظهرت نتائجها في مراحل لاحقة من تاريخ مصر الحديث .

١ اجراءاته العسكرية :

اعتقد محمد علي ان اهم سند للدولة هو الجيش القوي لذلك كان الجيش هو الدعامة الاولى التي اقام عليها استقلال مصر . والوسيلة الفعالة

في اقامة دولة عربية حديثة موحدة . وقد هيأ محمد علي كل دوائره واجهزته لتقوية الجيش والاسطول فادخل الاسلحة الحديثة وامر بتطبيق نظم التدريب الاوربية الحديثة . وقد استفاد من خبرة فرنسا في هذا المجال . فاستقبل بعثة عسكرية رسمية بقيادة الجنرال «بوابية» لتدريب جيشه . واستعان بضابط فرنسي برتبة كولونيل (عقيد) اسمه اوكتاف جوزف إنتلم سيف Seves سنة ١٨١٩م عرف بعدئذ بسليمان باشا الفرنساوي لتنظيم جيشه على غرار الجيش الفرنسي . وقد اسس عدداً من مصانع المدافع والبنادق والمتفجرات . واشترى عدداً من السفن من مرسيليا وتريستا وليفورنو وانشأ ترسانة بحرية كبرى في الاسكندرية . وفي كانون الثاني ١٨٣١م انزلت الى البحر اول سفينة مصرية ذات مائة مدفع . وقد استعان بخبرة مهندس بحري فرنسي اسمه «سريزي» سنة ١٨٢٩م وفي الوقت ذاته ارسل عدداً من الشبان لدراسة فن بناء السفن في اوربا، وخلال فترة قصيرة تدرب (١٥) الف مصري على الفنون البحرية . واسس محمد علي عدداً من المدارس العسكرية لاعداد الضباط والمراتب ومن ذلك المدرسة البحرية العسكرية والمدرسة العليا العسكرية التي اقيمت على غرار المدرسة الحربية الفرنسية المعروفة «سان سير» وتعد أول كلية عسكرية في مصر . هذا فضلاً عن مدارس المشاة في دمياط والخيالة في الجيزة والمدفعية في طره والموسيقى في القاهرة . وما لبثت هذه المدارس ان بدأت تغذي الجيش المصري بالكوادر الوطنية وكان لمحمد علي باشا الفضل في تجنيد المصريين. اذ أقام المعسكرات التدريبية في أسوان وغيرها ، وقد انخرط في هذه المعسكرات الاف من الشبان . وقد ترجمت الانظمة العسكرية الفرنسية الى العربية . واصبحت العربية منذ ذلك الوقت لغة الجيش والادارة في مصر .

هذا وقد اتسع حجم الجيش المصري اتساعاً كبيراً في نهاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر فقد اصبح يضم في سنة ١٨٣٣م (٣٦) فوجاً من المشاة ، قوام كل فوج منها ثلاثة الاف جندي و (١٤) فوجاً من الحرس

تعدادها العام (٥٠) الفا و(١٥) فوجاً من الخيالة ذا (٥٠٠) حسام و(٥) افواج من المدفعية تعدادها الفا جندي . وبهذا يكون المجموع العام قرابة (١٨٠) الف جندي . يضاف الى ذلك القوات غير النظامية التي بلغ تعدادها العام حوالي (٤٠) الف شخص . اما الاسطول المصري فقد اتسع ليضم خمسين قطعة بحرية .

اجراءاته الادارية :

لم تقتصر جهود محمد علي على تطوير الجيش والاسطول وتقويتهما انما تناولت النواحي الادارية . ومما يلفت النظر في اجراءاته ، اختفاء اسماء الدوائر الادارية والالقاب القديمة وظهور اسماء جديدة . من ذلك استحداث كلمة (مديرية) بمعنى محافظة وظهور لقب (مدير) اي رئيس المديرية ويعد مسؤولاً عن تنفيذ اوامر الباشا في مديريته وخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب والمحافظة على الجسور والترع والاشراف على المعامل في مديريته واصدار التوجيهات حول بذر بذور المحاصيل وريها . وظهر المأمور (رئيس المركز) ويضطلع بالمسؤولية الكاملة في القرى الواقعة تحت امرته . كما ادى استيلاء مصر على بعض المناطق خارج حدودها إلى استخدام لقب جديد هو (الحكمدار) ويجمع الحكمدار في يده السلطتين العسكرية والادارية .

لقد اصبحت الوظائف الحكومية في عهد محمد علي اكثر تعقيداً مما كانت عليه قبله . فالاجراءات التي تمت بالنسبة للاراضي الزراعية ادت إلى احداث تغييرات في النظام المالي للحكومة . كما تطلب التنظيم في الجيش إلى اقامة نظام للادارة العسكرية لم تعرفه مصر من قبل. ومن جهة اخرى تطلب بناء الاسطول وتطوير المدارس وتنمية التجارة والصناعة تأسيس جهاز حكومي للاشراف على هذه المؤسسات . ولذلك انشأ محمد علي مجلساً للحكومة باسم (الديوان العالي) ومقره القلعة . ثم كون

في سنة ١٨٢٤ — ١٨٢٥ م مجلساً سماه (المجلس العالي) يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارها شيخ الازهر ، واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة وغيرهم . ولكن محمد علي سرعان ماوجد ان تلك المجالس لاتؤدي واجبها على الوجه المطلوب ، ولاتناقش الامور كما ينبغي ، فأمر بالغاء اكثرها وتركيز العمل في الدواوين ولهذا السبب اصدر اللائحة الادارية المعروفة بالقانون الاساسي (رن نامة) في حزيران — تموز ١٨٣٧ وقد حصر هذا القانون السلطة في سبعة دواوين هي :

١ ديوان الخديو (وزارة الداخلية) ويختص بالشرطة والشؤون القضائية.
٢ ديوان الايرادات (وزارة المالية) .
٣ ديوان الجهادية (وزارة الدفاع او الحربية كما تسمى في مصر) :
٤ ديوان البحر (وزارة البحرية) .
٥ ديوان المدارس (وزارة التربية) .
٦ ديوان التجارة (وزارة التجارة).
٧ ديوان الفاوريقات : الفابريكات Fabric اي المعامل (وزارة الصناعة).

وطلب محمد علي من رئيس كل ديوان ويحمل لقب (مدير) تقديم تقرير اسبوعي للباشا عن احوال ديوانه . وكشفاً شهري بحساباته الى تفتيش الحسابات فضلا عن تقديم ميزانية سنوية . وحل محمد علي مشكلة الكوادر الادارية . باستخدام المزيد من مصريين في الوظائف والمراكز الادارية واحلالهم محل الاتراك والمماليك . ويرى احد الباحثين وهو جبرائيل باير Gabriel Baer ان اشغال المصريين تدريجياً للوظائف التي كانت وقفاً على الاتراك كان من ابرز التغييرات التي حدثت في بنية المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ويقصد بذلك ظهور طبقة بيروقراطية (مكاتبية) مصرية كان لها اثرها في السيطرة على مقدرات مصر بعد ذلك .

اجراءاته الاقتصادية :

اهتم محمد علي بتحقيق الرفاه المادي للبلاد فشجع الزراعة ، وطور نظام الري ، وادخل محصولات جديدة الى البلاد ، ونمى محصولات اخرى ، ومنها القطن والقنب والنيلة والتوث وقصب السكر واعدها للتصدير واحتكرتها الدولة بعد ان صير محمد علي الدولة المالكة الوحيد لجميع اراضي البلاد فصادر اراضي المماليك واستولى على اراضي الاوقاف خلال السنوات ١٨٠٩ — ١٨١٥م واخذت الدولة على عاتقها الانفاق لاعالة رجال الدين وصيانة المساجد ، والغى في سنة ١٨٠٩م نظام الالتزام الذي كان شائعاً في مصر انذاك ، ثم اعقبة المسح العام للاراضي ابتداءاً في سنة ١٨١٢م وبعد ذلك اعاد توزيع الاراضي الزراعية على الفلاحين فاعطى كلا منهم خمسة افدنة لاستثمارها بحسب توجيهات الدولة ، على ان تدفع الضرائب لها مباشرة وبذلك خلص الفلاحين من تبعيتهم الشخصية للملتزمين واما اذا عجز الفلاح عن استغلال ارضه او عجز عن دفع ضرائبها فللدولة الحق في استرجاعها وقد حددت الحكومة لكل منطقة انواعاً معينة من المحاصيل لزراعتها ، وعندما كانت المحاصيل تنضج كان عمال الحكومة يجمعونها ويضعونها في مخازن خاصة ، وتأخذ الحكومة حصتها نظير الضرائب المقررة وتشترى الباقي باسعار تقررها هي وغالباً ماتكون دون قيمتها الحقيقية ثم تبيعها للتجار الاجانب ، وغيرهم فتحقق ارباحاً كبيرة على حساب الفلاح . ومع هذا فقد عد الغاء نظام الالتزام في جباية الضرائب اصلاحاً اقتصادياً واجتماعياً كبيراً في مصر فمن جهة شعر الفلاحون انهم اصبحوا من رق الالتزام ، ومن جهة اخرى ظهرت طبقة الملاك الذين كان لهم ان يقوموا بعد ذلك بدور اساس في تاريخ مصر الحديث .

في البدء لم يسمح محمد علي بتكوين ضياع خاصة حتى لايؤدي ذلك الى قيام طبقة مالكة تتحدى سلطته . وبقى يعد نفسه مالكاً لمعظم اراضي مصر محتفظاً بالارباح الناتجة من الزراعة . ولكن الامر لم يستمر على

ذلك ، اذ تأكد في اواخر العشرينات من القرن التاسع عشر ، من عدم صلاحية نظام الاشراف المباشر على الزراعة واحتكار وتحصيل الضرائب على ايدي مندوبين حكوميين . واراد ان يخفف من نظام الاحتكار الذي استحدثه في سنة ١٨١٢م وبدأ يشعر بضرورة احاطة نفسه بطبقة ارستقراطية من ملاكي الاراضي تدين له بقوتها وثروتها ، فقرر السماح بقيام نوع من الملكية الزراعية وقام بتوزيع الاراضي غير المسجلة في السجلات العقارية والمعفاة احياناً من الضرائب على افراد اسرته ، وعلى الاشخاص الذين ساعدوه واخلصوا له وعلى كبار الموظفين وقادة الجيش على ان لايمنعوا منه حصول ضياعهم الذي كان يأخذه بالثمن الذي يراه . لقد سُميت الاراضي الزراعية الواسعة التي منحها محمد علي خلال العقدين الاخيرين من حكمه لافراد اسرته «جفالك» ومعناها في التركية ملك واعفاها من الضرائب ، وكانت تعطي بهذه الاطيان وثائق تسمى (تقاسيط) او حجج تقرر بالمحاكم الشرعية).

أما الاراضي التي وزعت على القواد وكبار الموظفين المخلصين للوالي والمقربين اليه ، فتسمى «ابعاديات» وقد سميت كذلك لانها مستبعدة من المسح الذي انجز سنتي ١٨١٣ — ١٨١٤م للاراضي الزراعية فقط . وكانت مصر تعد حسب احصاء سنة ١٨٢١م، ٥,٥٣٢,٠٠٠ نسمة وتضم ٢,٢٣١,٩١٥ فداناً من الاراضي المغلة . وحتى سنة ١٨٣٠م ظل حق استثمار هذه الاراضي شخصياً ، وتطور هذا النظام نحو اشكال اكثر لبرالية ، نحو الارساء الفعلي للملكية الخاصة لذلك ، فقد ساءت احوال الفلاحين وازداد ضغط الملاكين عليهم ، وكثرت حالات الهروب من الريف واصبح من سلطة النظار ومشايخ البلد تفتيش القرى والمدن بحثاً عن الفلاحين الذين هجروا اراضيهم واجبارهم على العودة .

فيما يتعلق بالصناعة ، عمل محمد علي من اجل ارساء اسس علمية للصناعة الوطنية . والواقع ان الصناعة الوطنية القائمة على التقنيات الجديدة ،

كانت حتى ذلك الحين غير معروفة في الشرق . وعلى كل حال فقد كانت التقنية الصناعية ماتزال في طريقها إلى احداث تغييرات اقتصادية ومالية في اوربا وذلك تحت التأثير القوي لبريطانيا . ويبدو ان محمد علي قد اطلع بسرعة على هذا التطور الصناعي الذي كان من شأنه فرض التفوق الاوربي على اقتصاد الدولة العثمانية الزراعي والحرفي ، فبدأ يرى ضرورة اقامة بعض الصناعات الضرورية في مصر في محاولة لتقليل امكانية الاعتماد على الدول الاوربية في شراء السلع المصنوعة اللازمة لجيشه واسطوله .

ومنذ الرابع من نيسان ١٨١٤م نشر محمد علي في مالطا اعلاناً يدعو فيه العمال من كافة الاختصاصات إلى التعاقد معه للعمل . وفي السنة التالية أمر بملاءه في العواصم الاوربية تزويده بعمال مهرة ومتخصصين في صناعة النسيج التي كان ينوي دفعها إلى الامام . وهكذا بدأت الايدي الماهرة في الهجرة إلى مصر ببطء تلبية لنداء محمد علي . وقد شكل هؤلاء العمال بعد مدة من الزمن جاليات تضم الآلاف المؤلفة بشكل خاص من السوريين واليونانيين والمالطيين والايطاليين . ومن بين هذه الكوادر سرعان ماظهر عمال واساتذة مصريون متخصصون في صناعة الحرير والنسيج والسكر والالبان والطرابيش والزجاج والحبال والدباغة والورق والبارود والمنتجات المعدنية التي بدأت في الظهور منذ سنة ١٨١٨ . وقد برز رجلان فرنسيان في صناعة الغزل والنسيج في مصر شهرة كبيرة ، وهما جيسيب بوكتي وجومل بوكتي من سكان ليون . وقد جاء الاول ميكانيكياً إلى مصر ابان الحكم الفرنسي . وفي ايلول سنة ١٨٠٩م عينه محمد علي مديراً عاماً لمصانع الغزل . وفي الوقت نفسه كان المهندسي الفرنسيي جومل يجري تجارب على انواع جديد من القطن ادت إلى تحقيق ازدهار كبير لزراعة هذا الصنف . وقد اراد هذان الرائدان معامل القطن الكبيرة التي تم انشاؤها اولاً في سنة ١٨١٨م في القاهرة والخرنفش وبولاق . وقد حققت صناعة الانسجة المصرية نجاحاً كبيراً ليس في مصر وحدها ، بل في الاقطار العربية . وصار بامكان

مصر منذ ذلك الحين ان تطمح إلى منافسة منتجات مانجستر وكلاسكو كما اشتهرت الغزول المصرية في اوربا وصارت تصدر إلى موانئ بحر الادرياتيك وسواحل ايطاليا .

ظلت الصناعة المصرية في عهد محمد علي تعاني من مشاكل كبيرة لعل من ابرزها امرين ، اولهما قلة المواد الخام والصناعة الفنية المدربة وثانيهما عدم تبلور طبقة برجوازية مصرية نشيطة تأخذ على عاتقها آنذاك القيام بعملية التصنيع ، عوضاً عن موظفي الدولة .

لقد اتسعت تجارة مصر ، وذلك لاهتمام محمد علي بتطوير مينا الاسكندرية وجعله جاهزاً لرسو السفن الكبيرة . واضحت السفن المصرية تمخر عباب البحر الاحمر وشرق البحر المتوسط وقد اعيد افتتاح الطريق البري بين القاهرة والسويس واقيمت المحطات التجارية على طوله . ولكن العامل الرئيسي الذي ادى الى توسع التجارة ، هو وضع الانتاج الصناعي والحرفي والزراعي تحت سيطرة الدولة وتحققت هذه السيطرة بوساطة نظام الاحتكار ، وهو جهاز ذو طابع خاص من التنظيم والادارة المركزية لحياة البلاد الاقتصادية .

وتكون هذا النظام خلال السنوات ١٨١٦ — ١٨٢٠م وهو يقوم على اشراف الموظفين على الاعمال الاقتصادية التي يقوم بها الفلاحون والحرفيون وتنظيمهم لها ، وكذلك على حق الدولة في شراء وبيع البضائع التي ينتجونها وعلى هذا الاساس وضعت تجارة الكثير من المنتجات الزراعية لدى الدولة . كما احتكرت الدولة انتاج وشراء القطن المغزول والمنسوجات والمناديل والصابون والسكر وبضائع اخرى . هذا فضلاً عن احتكارها للتجارة الداخلية والخارجية ، وقد اضطلعت الدولة بدور المورد الوحيد للبضائع المصرية الى الاسواق الداخلية ، والمصدر الوحيد الى الخارج ، وتحول تجار المفرد في المدن الى وسطاء يبيعون البضائع الحكومية .

اجراءاته التعليمية والثقافيـــة :

اهتم محمد علي بالتعليم . فكان له الفضل في انشاء المدارس الحديثة . وكان هدفه من ذلك تزويد مؤسساته العسكرية والادارية بالضباط والمهندسين والميكانيكيين والموظفين والخبراء في مختلف الاختصاصات العلمية والفنية فانشأ النظام التعليمي على شكل هرمي، بادئاً بالتعليم العالي لحاجته المباشرة اليه في بناء جيشه وحكومته . وقد امده الازهر ، بعدد كبير من الشبان المتعلمين تعليماً دينياً تقليدياً ، فمن كان باستطاعتهم استيعاب مايلقى عليهم من دروس جديدة . وكانت اهم مشاكل التعليم العالي لغة التدريس ،لان اكثر المدرسين كانوا من الاجانب الذين لايعرفون اللغة العربية ، وكان على التلاميذ ان يدونوا المحاضرات في دفاترهم او تطبع في كتب خاصة بعد ان ترجمتها الى العربية ثم توزع عليهم . وكان التعليم في عهد محمد علي مجانياً بل كانت الدولة تدفع للتلاميذ مرتبات شهرية تشجيعاً لهم على المواظبة والاستمرار . .

ان اول مدرسة انشئت في عهد محمد علي ، كانت مدرسة الهندسة في سنة ١٨١٦م وتلتها مدرسة الطب في سنة ١٨٢٧م والتي اتبع فيها منهاج كلية الطب في باريس ثم اعقبتها مدارس الصيدلة والالسن (اللغات) والفنون والصنائع والزراعة والطب البيطري . وكان ديوان المدارس الذي اشرنا اليه من قبل يشرف على نشر التعليم ويضع لوائحه ومناهجه الحديثة . وقد اكتمل النظام التعليمي بين سنتي ١٨٣٦ و١٨٤٠م حين اصبح في مصر نحو (٥٠) مدرسة ابتدائية ومدرستان ثانويتان احداهما في القاهرة والاخرى في الاسكندرية .

إنتهج محمد علي سياسة إرسال البعثات العلمية في مختلف الاختصاصات الى دول أوربا المختلفة وخاصة فرنسا ، منذ سنة ١٨١٣م وكان لهذه البعثات فضل كبير في تنوير الاذهان في مصر من خلال تدريسهم ونشاطهم في التأليف والترجمة وإسهامهم في الصحفة، وإحتلالهم للوظائف . وبلغ

عدد الطلبة الذين أرسلهم محمد علي بين سنتي ١٨١٣و١٨٤٧م إلى أوربا (٣١٩) طالباً وهو عدد لابأس به في ذلك العهد .إن البعثة الاولى التي توجهت إلى فرنسا ضمت عدداً من الطلبة الازهريين كان من بينهم العالم المصري رفاعة رافع الطهطاوي الذي قام بدور كبير في النهضة العربية الحديثة إذ جمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ونشر عدداً من الكتب سجل فيها إنطباعاته عن الحضارة الاوربية، ومن أبرزها كتاب «تخليص الابريز في تلخيص باريز» ومنها «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية»و«القول السديد في الاجتهاد والتقليد»و«المرشد الامين في تربية البنات والبنين ».

وقد شجع عدداً من طلبته في مدرسة اللغات على ترجمة كثير من الكتب من الفرنسية إلى العربية .وكان من نتائج حركة الترجمة إلى العربية ، أن بدأت اللغة العربية أولى خطواتها في سبيل النهضة الحديثة .إذ أخذ الاسلوب ينطلق شيئاً فشيئاً من قيوده البديعية القديمة ويصطنع لنفسه طرقاً جديدة يعني فيها بالمعنى دون اللفظ ، وبالجوهر دون العرض. وأحرزت العربية في مصر ،نصراً اخراً بحلولها تدريجياً محل التركية لغة رسمية للدولة.

أنشأ محمد علي مطبعة بولاق سنة ١٨٢١م، وهي تعد من أقدم المطابع في الوطن العربي . ولقد نشرت كتباً باللغة العربية وضعت في متناول المثقفين وبأثمان زهيدة نصوصاً من الاداب والعلوم العربية وكذلك ترجمات لافضل الكتب الفرنسية والانكليزية. وقد بقيت مطبعة بولاق ومنشوراتها حتى الوقت الحاضر شهيرة ليس في مصر وحدها وإنما في الوطن العربي كله. وفي سنة ١٨٢٧م تولت مطبعة بولاق ، طبع صحيفة الحكومة الرسمية (جورنال الخديو) وفي السنة التالية صدرت جريدة (الوقائع المصرية) التي قدر لها الاستمرار .ويعد محمد علي باشا أول من أصدر صحيفة رسميةفي الوطن العربي. وكان الهدف من (الوقائع) متابعة نشاط الحكومة، والاسهام في التوجيه والارشاد العام. وتعددت الصحف في مصر في ظل خلفاء محمد علي ،وأصبحت بفضل إسماعيل باشا (١٨٦٣ —١٨٧٩م) رسمية وشعبية ،

...الة ومعارضة .وكان لهجرة السوريين إلى مصر في أعقاب منتصف ١٨٦٠م ونشاط المصلح المعروف جمال الدين الافغاني السياسي والفكري ... كبير في تنوع الموضوعات التي أخذت الصحف تعالجها، وفي مقدمتها ... الاصلاحات الادارية والسياسية والدستورية، ومحاربة الاستبداد ونشر ... الفكري ،والدعوة الى الحرية والعدالة.ولم تحل سنة ١٨٨٢م حتى ... الصحف اليومية في مصر ثلاثاً وثلاثين صحيفة لاتزال إحداها وهي «الاهرام» تصدر الان.

٣ سياسة محمد علي العربية :

اثارت سياسة محمد علي باشا في مصر مخاوف السلطان العثماني ... محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٢٩م) وسخطه ، لانها محفزة لسكان ولايات ... على الاخذ بوسائل التقدم ، ومشجعة على الاستقلال بولاياتهم ... اظهر السلطان عدم رضاه من سياسة محمد علي ، غير ان محمد علي ... في تحقيق سياسته التي املتها عليه ظروف مصر وتطلعاته الشخصية ... بطابع الحرص على صفوف العرب . وقد تجلت هذه السياسة في ... حكومة مصر من تطور العمليات العسكرية البريطانية ضد امارات الخليج ... والبحرين بوجه خاص . ولشدة ما ابدته الحكومة المصرية من حرص ... الاسلحة العربية وتمسك بحقوق العرب ، اعتقد الدبلوماسيون الاوربيون ... السياسة المصرية تهدف الى احياء الدولة العربية القومية الموحدة . ولقد ... هذا الاعتقاد في الكثير من الوثائق والتقارير التي اعدها اولئك ... الدبلوماسيون وقدموها الى حكوماتهم . ويبدو ان احاديث وتصريحات ... علي باشا وابنه ابراهيم باشا ، تشكل الاساس الذي ارتكزت عليه ... المعتقدات . فقد اوضح محمد علي باشا اهدافه بصراحة في حديث ... الجنرال الفرنسي بوايه Boyer سنة ١٨٢٥م قائلاً «انه سيعمد ، الى ... ثكنات جديدة من جيشه ... ثم يضع يده على اراضي الشام ... ولايقف ... الجيش الا على ضفاف دجلة والفرات» مضيفا انه «سيستولي على بلا

الدولة العثمانية أسهم وبفعالية في الجدل الذي كان قائماً حول شرعية التنظيمات العثمانية أو عدم شرعيتها والنقطة المهمة التي يعتمدها خير الدين هي ان الظروف تتغير ويتغير معها ماهو مفيد وضروري للمجتمع. أما ابرز انجازاته فهي :-

١. شق الطرق وتعبيدها وتوسيع رقعة المواصلات .
٢. تأسيس مكتبة حديثة على نمط المكتبات الاوربية .
٣. تحديث نظم التعليم في جامعة الزيتونة .
٤. العمل على حل مشكلة توطين العشائر واستقرارها وايقاف الحملات العسكرية السنوية لجمع الضرائب منها واشعارها بحماية الدولة وتقديم الخدمات اللازمة لها وتخفيض الضرائب المفروضة عليها .
٥. الغاء الضرائب على الاراضي الزراعية التي تباشر زراعة الزيتون والنخيل ولمدة عشرين سنة تشجيعاً لزراعة هاتين المادتين الاساسيتين للاقتصاد التونسي
٦. تأسيس نظام جديد لادارة الاوقاف واعادة تنظيم الضرائب على الاستيراد والتصدير .
٧. انشاء المدرسة الصادقية على نمط مدارس الليسية الفرنسية .

ان اوضح أثر لحركة الاصلاح العثماني كان في العراق وسوريا. ففي العراق قام الوالي داود باشا آخر المماليك (١٨١٦ - ١٨٣١م) باتخاذ اجراءات مماثلة لما حدث في استانبول في مجال الغاء الفيالق الانكشارية وذلك بأن جمعهم وقرأ عليهم الارادة السلطانية القاضية بالغاء الجيش الانكشاري فقابلها الجميع بالقبول والطاعة. ثم عزم السلطان محمود الثاني انهاء حكم المماليك في العراق واعادة الحكم المباشر. وعلى أثر ذلك عين في ولايات العراق عددا من الولاة حاول بعضهم أمثال رشيد باشا كوزلكي وكلمق باشا القيام باصلاحات تستهدف تحسين اقتصاد البلاد .

وقد انشأ رشيد باشا شركة ملاحة واستورد باخرتين باسم بغداد

مدحت باشا في العراق

~~الماخوذة من الدورب ببلجيكا . وتوسعت تلك الشركة في عهد نامق باشا~~
~~بالمال عليها الادارة العثمانية النهرية . وبنى لها معملا لتصليح البواخر حتى~~
~~انها استطاعت تنافس شركة لينج الانكليزية التي تأسست سنة ١٨٤٠م .~~

ولم تظهر آثار حركة الأصلاح العثماني في العراق بشكل واضح الا في عهد الوالي مدحت باشا الذي تولى حكم العراق بين سنتي ١٨٦٩و١٨٧٢م. ان مدحت كما سبق ان قدمنا ، من اوائل المصلحين المتنورين الذين كافحوا في انشاء حكم دستوري يحل محل الحكم الأستبدادي القائم آنذاك في الدولة العثمانية . وقبل تعيينه في بغداد كان والياً على ولاية الدانوب في الفترة بين ١٨٦٠و١٨٧٩م. وقد وصل بغداد والياً عليها في ٣٠ نيسان سنة ١٨٦٩م. جاء في الفرمان المتعلق بتعيينه بأن « بغداد هي من أهم ولايات امبراطوريتنا لاهميتها وموقعها يجعلانها تستحق كل أنواع التقدم وعليه فأن اعز رغبة لدي ان نرى الولاية تحظى بجميع الوسائل المؤدية إلى التطور » . وقد اعترف الفرمان انه بدون وجود حاكم فأن التقدم المنشود لايمكن تحقيقه وان مدحت هو الشخص الذي سيحقق اهداف السلطان . لذلك منح مدحت كلتا السلطتين المدنية والعسكرية في ولاية بغداد . كما زود بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته في الولايتين الآخريتين الموصل والبصرة . وقد تجلت اجراءاته في ادخال الاصلاحات الأدارية والأقتصادية وخاصة تطبيق قانوني الأراضي والولايات . وكانت الغاية الرئيسة من وراء تلك الاصلاحات العمل على ربط الولايات العراقية الثلاث بعضها مع البعض الآخر ، وتقوية السلطة المركزية عليها .

ويعد نظام الطابو ابرز اعمال مدحت الأقتصادية . وكان الهدف الاساسي من هذا النظام محاولة ايجاد حل لمشكلة العشائر ، ووضع حد لاطماعها المستمرة وتحويل افرادها إلى مواطنين مستقرين وذلك بتوفير سبل الري وتحسين وسائل الري . وقد أثمرت سياسته في أماكن متعددة ، لكنها فشلت ان يتحول شيوخ العشائر إلى ملاكين للاراضي . ولم تعد العلاقات

داخل العشيرة تعتمد على المساواة بين افرادها ، بل اصبح مقدار مايملك الشخص المعيار الأساس للتمييز بينهم . واخذت الحكومة تستعين ببعض رؤساء العشائر لتحسين الضرائب ، وبذلك حققت الحكومة الهدف الرئيس الذي توخته من اجراءات توطين العشائر ، هو ان الحكومة تستطيع جباية الضرائب ، وتفرض الجندية على القبائل المستمرة بشكل اسهل لفرضها عليها في حالة انتقالها .

وفي الميدان العسكري ، صار العراق منذ التشكيلات العسكرية لسنة ١٨٤٨م، مركزاً للجيش الهمايوني السادس كما أشرنا من قبل ، وعلى الرغم من أن هذا الجيش لم يكن يخلو من المتطوعين المحليين ، فأن اكثرية افراده كانت من غير العراقيين . كما كان جميع ضباطه من الأجانب .

وعليه فقد استهدف مدحت باشا في اصلاحه العسكري تبديل العناصر الأجنبية بأفراد عراقيين كي يحس السكان بشعور الولاء نحو الجيش وكي يكون بالستطاع تلافي النقص في عدد الجنود الذين كانوا « لايمكثون الا فترات قصيرة في العراق يسرعون بعدها بالعودة إلى اوطانهم » ولهذا السبب باشر مدحت باشا بتطبيق نظام التجنيد الأجباري وقد حالفه النجاح في عدد من المدن العراقية لكنه باء بالفشل في منطقة الفرات الأوسط اذ رفض افراد العشائر بشدة كل محاولة ترمي إلى جعلهم جنوداً في جيش الحكومة . وقد نشبت ثورة عرفت بأسم ثورة الدغارة استمرت مدة شهرين ووجهت ضده مشروع التجنيد ونظام الضرائب ووقعت في اثنائها اصدامات عدة بين العشائر وجيش الحكومة وذهب نتيجتها الألف القتلى من الطرفين ولكنها انتهت بتفوق الجيش وبأعدام عدد من شيوخ العشائر الثائرة . . وقد قام مدحت باشا بأجراء عسكري آخر ضد تمرد وغارات عشيرة شمر الجربا . وهذه القبيلة كانت مسيطرة على منطقة الحدود بين سوريا والعراق وكذلك على الطريق الممتدة من تكريت إلى الموصل ، ولم يكن باستطاعة قافلة ان تسر بأراضي شمر دون دفع ضريبة معينة إلى شيوخها تسمى (الخوة) . وقد نشب

... بين شمر وجيش الحكومة انتهى بالقبض على الشيخ عبدالكريم شيخ ... ومحاكمته واعدامه في الموصل . وقد حل مكانه في مشيخة القبيلة اخوه ... الذي تصالح مع الحكومة وصار يتسلم منها راتباً شهرياً اما عشيرة ... فقد استطاع مدحت حل مشكلتها دون اللجوء إلى عمليات حربية . ... شيوخها من آل السعدون على تفويض اراضي عشيرتهم والتزام ... الميري فارتبط آل السعدون منذ ذلك الحين بالحكومة وصاروا اداة ... ياسة الحكومة في المنتفك ومهما يكن من أمر ، ففي خلال ثلاث ... تضاعف عدد افراد الجيش وصار مؤلفاً من(١٦) كتيبة مشاة وكتيبتين ... الخيالة وكتيبة من المدفعية ، وحتى يجهز هذا الجيش بالضباط العراقيين ، ... مدحت مدرستين عسكريتين في بغداد ، كانتا طليعة معاهد الدراسة ... في البلاد .

... في ميدان المواصلات ، اعاد مدحت تشكيل الشركة الحكومية المسماة ... الادارة العثمانية النهرية) واصلح بواخرها القديمة ، ثم شرع بشراء بواخر ... ذات حمولات كبيرة كما أنه أسس لهذا الغرض محطات للوقود ... وعدن وبندر عباس وبوشهر وبعد هذا صارت البواخر العثمانية ... بين آونة واخرى بين البصرة واستانبول عبر قناة السويس التي افتتحت ١٨٦٩م . وفي خلال ولاية مدحت صار عدد البواخر التابعة للادارة ... ثماني ، اربع منها تبحر بين البصرة واستانبول والأربع الأخرى ... الملاحة النهرية في دجلة والفرات وشط العرب .

... المشروع الثاني الذي انشأه مدحت في حقل المواصلات فهو ترامواي ... الكالسكية ، وقد شجع بهذا الخصوص الموسرين من أهالي بغداد للتعاون ... وتأسيس شركة مساهمة ، وفي غضون سنة انتهى العمل في سكة ... العربات اللازمة من انكلترا ثم افتتح المشروع سنة ١٨٧١م. ... النفقة النهائية للترامواي (٢٤) الف ليرة تركية دفع منها ١٨ الف

ليرة من رأس مال الشركة المساهمة . المال المتبقي فقد تم دفعه من أرباح الشركة التي بلغت حوالي ٢٠ بالمئة في السنة .

وفي عهد مدحت باشا دخل التعليم الرسمي الحديث الى العراق ، وانشأت أولى المدارس الحديثة، وفي مقدمتها المدرسة الرشدية الملكية (المدنية) ومدة الدراسة فيها أربع سنوات بعد الابتدائية بالاضافة الى ذلك انشأ مدرسة الصناعة ومدة الدراسة فيها أربع سنوات بعد الابتدائية يتلقى الطلبة في اثنائها دوروساً تثقيفية عامة ويتخصصون في احدى المهن كالتجارة والخياطة والحدادة والطباعة.ويتلقى الطلبة في المدارس الحديثة مواضيع عديدة ابرزها اللغة التركية واللغة الفرنسية ، والتاريخ ، والجغرافية ، والجبر والفيزياء ، والدين والرسم. ان اهتمام مدحت باشا بنشر التعليم في العراق انعكس من خلال تزايد النسبة المئوية للمتعلمين ففي سنة ١٨٥٠م لم تكن نسبتهم تزيد عن نصف في المائة من سكان المدن، في حين اصبحت نسبتهم سنة ١٩٠٠م تتراوح بين الخمسة والعشرة بالمائة .

لقد كان مدحت باشا في طليعة الولاة العثمانيين الذين اهتموا بأمور الطباعة ، والصحافة فقد اسس مطبعة حكومية بأسم مطبعة الولاية واصدر جريدة رسمية باسم الزوراء في ١٥ حزيران سنة ١٨٦٩م وهي أول جريدة ظهرت في العراق تبعتها بعد ذلك جريدة الموصل ١٨٨٥م والبصرة ١٨٩٥م. وكانت الزوراء تصدر مرتين في الاسبوع باللغتين العربية والتركية،وقد استمر صدورها حتى الاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٩١٧م.أما محتوياتها فقد كانت تتضمن البيانات الحكومية والاخبار المحلية والانباء العالمية ونصوص القوانين العثمانية وكذلك المقالات السياسية والادبية وحقلاً لرسائل القراء وانتقاداتهم.وفي عهد مدحت باشا كذلك ،تم بناء مدينتي الناصرية والرمادي ومن اعماله بناء المستشفيات ودور حديثة للحكومة ومزرعة نموذجية وارسل المهندسين

اقليم الري ، كما سعى لتأسيس المحاكم والبلديات ونظم قوة جديدة لحماية الامن الداخلي (الضبطية) واهتم بردم الكثير من المستنقعات وتحويلها الى اراض صالحة للزراعة ، وشجع على زراعة محاصيل جديدة وابدى التسهيلات اللازمة لزراعتها ، واظهر اهتماماً بأصلاح نظم الضرائب الزراعية واسس مصنعاً للحدادة ومعملاً لتقشير الرز ببغداد وكان من بين المنشأت الصناعية الاخرى التي اسسها مصفاة للنفط في بعقوبة . ومعملاً لاصلاح السفن في البصرة واقام متنزهاً عاما في بغداد ، وشجع العراقيين على ارتياده للراحة ، وحاول الوصول الى حل لمشكلة الحدود العراقية الايرانية مستفيداً من فرصة زيارة الشاه ناصر الدين القاجاري لبغداد التي استغرقت ثلاثة اشهر ، الا انه لم يصل الى نتائج مجدية بسبب تعنت الايرانيين واطماعهم في العراق. ومن المناسب الاشارة الى ان مدحت راقب بحذرا هذه الزيارة المريبة واحاطها عدد كبير من رجال الامن للحيلولة دون قيام الشاه ببعض الأتصالات مع العجالية الايرانية في العراق بقصد التخريب .

ان مدحت باشا بذل جهوداً كبيرة لتحديث العراق ، وقد نجحت جهوده في تحقيق تقدم شمل جميع ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما دفع الكثير من المؤرخين الى وصفه بأبي الاصلاح ، لكن هذا لم يخل من جهة اخرى دون اخفاق قسم من اصلاحاته او عدم توفر الفرصة أو الاموال الكافية لانجازها . ومن ذلك اخفاق بعض مشاريع الري واصلاح الانهار ، وعلاوة على ذلك فقد حفلت سجلات الطابو والتي تحوي فيها الاراضي المفوضة للملاكين الجدد باخطاء وغموض كبيرين ومما يذكر ان مدحت باشا استقال من منصبه ، احتجاجاً على قرارات لجنة التحقيقات التي شكلها الصدر الاعظم محمود نديم باشا ، ومنها قرار بخصم قسم كبير من مصروفات ولاية بغداد وتحويله الى العاصمة وقد قبلت استقالته من ولايته لبغداد بعد ان دامت ثلاث سنوات .

وعلى الرغم من الأعمال التي قام بها مدحت باشا في العراق فقد قدم استقالته نتيجة لخصم لجنة الإصلاحات العثمانية وبأمر من الصدر الأعظم مبالغ كبيرة من حصة العراق.

م - الانقلاب العثماني(١٩٠٨) وتطور الحركة العربية :-

حاول مجموعة من الضباط الذين ينتمون الى جمعية الاتحاد والترقي (وهي الجمعية التي أسسها إبراهيم تيموا سنة ١٨٨٩) بتنفيذ الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد الثاني في(٢٣ تموز ١٩٠٨) الا انه شعر بهذه الحركة وتظاهر بانه يستجيب لمطالب الانقلابيين فوعدهم بإعادة العمل بالدستور المعطل منذ سنة ١٨٧٧ وتحقيق الحرية والعدل والمساواة، وعلى اثر ذلك نشط عمل الاتحاديين واعلنوا في اواخر شهر أيلول سنة ١٩٠٩ برنامج الجمعية الذي تضمن :-

١- توسيع صلاحيات الاتحاديين والعناصر العثمانية .
٢- تكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية .
٣- الاهتمام بالتعليم وجعله شاملا وموحدا .

تلقت جمعية الاتحاد والترقي الدعم والمساندة من قبل الشباب العربي الذين قاموا بتأسيس الجمعيات ومنها جمعية الإخاء العربي العثماني التي انتخبت صادق باشا العظم وهو من ضباط الجيش العثماني رئيسا لها وقد اعلنت الجمعية تعاونها مع جمعية الإتحاد والترقي والمحافظة على الدستور،وعلى الرغم من الدعم والمساندة التي قدمها العرب للاتحاديين الا انهم لم يحصلوا على حقوقهم حيث قام الاتحاديين بتطبيق المركزية الشديدة بالاعتماد على سياسة التتريك كما قاموا بالغاء جمعية الإخاء العربي العثماني بعد ان خلعوا السلطان عبد الحميد الثاني وتعيين اخوه الاصغر محمد رشاد.

كما وقف المثقفون العرب موقفا مضادا من سياسة الإتحاديين فقاموا بتأليف الجمعيات والنوادي التي كان ظاهرها ادبي وباطنها سياسي وابرز مثال على ذلك هو المنتدى الأدبي الذي أسسه عدد من الطلاب والادباء في صيف ١٩٠٩ في اسطنبول، وقد اصدر النادي مجلة لسان العرب وكان من ابرز اعضاء النادي عبد الحميد الزهراوي ورشيد رضا وعزيز علي المصري واصبح للنادي فروع في سوريا ومصر والعراق ، وقد وصل النادي الى قمة نشاطه اثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٥-١٩١٦ الأمر الذي اضطر الاتحاديين الى اصدار حكم الإعدام بحق قادته ومنهم عبد الحميد الزهراوي وشفيق العظم وسيف الدين الخطيب .

... بعض الكتاب اليهود ... ودفعت احدهم إلى ...
بالعبرية بعنوان الحركة العربية واغراضها . اشار فيه إلى ...
بدأت تبرز إلى الضوء ، وقد تهدد الصهيونية بالخطر ، الأوان الراهن ...
لم يعر تلك الكتابات اهتماماً كبيراً ، ولم تكن في نظرهم سوى ...
للسامية عزوها إلى العرب المسيحيين .

نشأة الحركة العربية القومية :

كانت جمعية بيروت السرية سنة ١٨٧٦م أول جهد منظم في ...
السياسية العربية . فقد بدأت بلصق المنشورات التي تندد بمساوئ ...
العثماني وتدعو إلى الثورة ووضعت اول بيان محدد عن منهاج ...
السياسي ، لكنها توقفت بسبب حملات القمع الحكومية . بين سنتي ١٨٨٢م
و ١٨٨٣م. وانتقل ابرز مؤسيسها : فارس نمر ، وشاهين مكاريوس ويعقوب
صروف ، إلى القاهرة سنة ١٨٨٥م ليؤسسوا هناك جريدة سياسية يومية هي
جريدة المقطم ومجلة فكرية باسم المقتطف ، وليتابعوا من خلالها الدعوة
إلى محاربة الظلم والاستبداد التركيين والعمل على تأليف جبهة عربية موحدة
(من المسلمين والمسيحيين) تقوم على فكرة العروبة وتستطيع الوقوف في وجه
الاتراك . كما تكونت في دمشق حلقة سياسية سرية باسم حلقة دمشق الفيحاء
في دار الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ — ١٩٢٠م) وذلك سنة ١٩٠٣م. وكان
لولب هذه الحلقة محب الدين الخطيب ، ومن اعضائها البارزين عادل
الشهابي وعثمان مردم ولطفي الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمي .
ان الطروحات السرية لهذه الحلقة تسجل خطوة مهمة على طريق توسيع
اهتمام الشيخ طاهر الجزائري الثقافية لتأخذ طابعاً سياسياً وذلك باتجاه الدعوة
لمنهاج سياسي يقضي بمطالبة الدولة العثمانية باتخاذ الاجراءات الكفيلة
بمنح العرب حقوقهم المشروعة . وقد حققت الحلقة بعض الاتصالات مع
شباب بيروت . ومنهم عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني
والامير عادل ارسلان وغيرهم ممن ستبرز اسمائهم اعضاءاً في الجمعيات

ربية والقومية التي ظهرت قبل الحرب العالمية الاولى . وفي سنة ١٩٠٥م
قل معظم اعضاء جامعة دمشق إلى استانبول للدراسة فألفوا هناك جمعية
النهضة العربية التي قامت بدور كبير في بث الوعي القومي .وتوقفت عن
العمل قبل اعلان الدستور ، وبعده تطورت الاتجاهات الفكرية وقويت بشكل
خاص ونما الوعي القومي من مجرد مشاعر واحاسيس تجيش في صدور
الاحرار من العرب إلى الحركة منظمة لها انصارها ومناهجها السياسية .ومما
اد في بلورة النواحي التنظيمية في الحركة العربية ، التطورات التي حدثت
في الدولة العثمانية وكان من ابرزها الانقلاب العثماني لسنة ١٩٠٨م .

ان الانقلاب العثماني الذي تم في ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨م قامت به مجموعة من الضباط تنتمي الى جمعية الاتحاد والترقي وعلى رأسها انور ونيازى . وقد تمخضت العملية الانقلابية عن تظاهر السلطان عبد الحميد باستجابته لمطالب الانقلابين باعادة دستور سنة ١٨٧٦م المعطل منذ سنة ١٨٧٧م والسير بموجب شعارات الحرية والعدالة والمساواة . وسرت من جراء ذلك موجة من الفرح والابتهاج في معظم ارجاء الدولة العثمانية أملاً في بداية عهد جديد تترجم فيه شعارات الاتحاديين الى واقع ملموس . وقد نشط الاتحاديون في الدعاية لمبادئهم عن طريق التوعية السياسية وتمثلت هذه بمختلف فروع جمعية الاتحاد والترقي التي افتتحت في شتى ارجاء الدولة العثمانية . كما استعانت الجمعية بالصحف والمجلات لنشر اهدافها السياسية . وعمدت كذلك الى فتح النوادي والمدارس وعينت لها معلمين ودعاة من بين اعضائها يلقنون الطلاب اهداف ومبادىء الاتحاديين .

نشرت جمعية الاتحاد والترقي برنامجها السياسي في اواخر ايلول سنة ١٩٠٩م. وقد نص على ان تدار الولايات على اصول توسيع المأذونية اي الصلاحيات التي نصت عليها المادة (١٠٨) من الدستور . مع مواصلة السعي في تقوية عرى الاتحاد والاخاء بين العناصر العثمانية . على ان تبقى اللغة التركية هي اللغة الرسمية . وتتبع الدولة سياسة تعليمية ترمي الى تربية

النشيء العثماني تربية موحدة والى فتح مدارس تضم عناصر الشباب المختلفة في تعليم مشترك للوصول الى التربية الموحدة .

مال الاحرار من العرب وغيرهم في استانبول في تلك الـ الى تشكيل جمعيات تساند جمعية الإتحاد والترقي فظهرت في ١ ١٩٠٨م جمعية الاخاء العربي ـ العثماني . وقد نصت المادة الأو المنهاج السياسي لهذه الجمعية على مساندة جمعية الاتحاد والترق سبيل المحافظة على احكام الدستور وجمع كلمة العناصر العثما المختلفة . وكان رئيسها صادق باشا العظم ، ضابطاً سابقاً في الجيش ال ومن اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، وقد عاش في المهجر مضطهدا السلطان عبد الحميد ، وعاد الى استانبول بعد الانقلاب .

بالرغم من الجهود التي بذلها الزعماء العرب المعروفون ا ومنهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، ورفيق العظم الشمعة ، لكي يظهروا اخلاصهم وتعاونهم مع الاتحاديين الا ا الخلاف سرعان مابدأت تلوح في الافق ، خاصة بعد ان ظهر المقالات في الصحف الموالية للاتحاديين ، تهاجم العرب وتتحامل وبدلاً من ان يحقق الاتحاديين للعرب مطامحهم المشروعة اوضاع الولايات العربية وتشجيع التعليم باللغة العربية ، فانهم اتبعوا تطبيق مركزية شديدة ، واعتمدوا سياسة التتريك وتمجيد الطورانية واستخدموا لتحقيق ذلك الارهاب ، خاصة بعد ان الثورة الرجعية التي حدثت في ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩م، وخلع السلطان الحميد على اثرها ونصب محله اخاه الاصغر محمد رشاد . وحل الجمعيات ، ومن ضمنها جمعية الاخاء العربي العثماني .

لجأ المثقفون الاحرار من العرب ، ازاء تلك السياسة ال الى تأسيس النوادي والجمعيات التي ظاهرها ثقافي ، وباطنها سيا

ولعل من ابرز هذه النوادي «المنتدى الادبي» باستانبول الذي اسسه جماعة من الموظفين والنواب والادباء والطلاب في صيف سنة ١٩٠٩م ليكون مركزاً لالقاء المحاضرات والابحاث العلمية وتقديم المسرحيات والروايات العربية والاستفادة من ريعها في تمشية امور المنتدى. وقد اصدر المنتدى مجلة ادبية باسم (لسان العرب) وسرعان ما أصبح المنتدى ملتقى للعرب يتناقشون فيه ويبحثون في شتى المواضيع التي تهم مستقبل بلادهم. وكان من مؤسسيه عبد الكريم الخليل، وعبد الحميد الزهراوي، ورفيق رزق سلوم وصالح حيدر، وجميل الحسني، ويوسف مخيبر، وسيف الدين الخطيب وشفيق العظم، ورفيق العظم، ورشيد رضا، ورضا الصلح، وطالب النقيب، وعزيز علي المصري، وندره المطران، ونخلة المطران، وعزة الجندي، ورشدي الشمعة. وبلغ اعضائه الوفا، كانوا باغلبيتهم من الطلاب، وصارت له فروع عديدة في سوريا ولبنان والعراق. وظل المنتدى يعمل حتى سنة ١٩٠٥م حين اغلقته السلطات الاتحادية. وقد تعرض عدد من اعضائه للاعدام في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦م بسبب نشاطهم القومي. ومن هؤلاء عبد الحميد الزهراوي، وشفيق العظم، ورفيق رزق سلوم وعبد الكريم الخليل، ورشدي الشمعة، وصالح حيدر، وسيف الدين الخطيب، وعزة الجندي، وندرة مطران، ونخلة مطران. وقد يكون من المناسب الاشارة الى ان شبان المنتدى الادبي، رفعوا، لاول مرة بين سنتي ١٩٠٩ — ١٩١١م، العلم العربي القومي الذي يتألف من مثلث احمر اللون تلتصق به ثلاثة الوان افقية متوازية هي الاسود ويرمز للدولة العباسية من فوق ثم الاخضر ويرمز للدولة الفاطمية ثم الابيض ويرمز للدولة الاموية، اما اللون الاحمر، فهو رمز راية الاشراف في الحجاز. وهذا العلم بالذات هو الذي رفعه الشريف حسين ابان ثورته على الاتراك سنة ١٩١٦م ويرفعه الفلسطينيون وحزب البعث العربي الاشتراكي اليوم.

لقد خابت آمال العرب وضعفت ثقتهم بالاتحادين. وقد دلت

انتخابات اول مجلس للمبعوثان ، بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨م، ا
سيطرة اعضاء جمعية الاتحاد والترقي عليها بطريقة وتسمح لهم او لغ
ان يشكلوا اكثرية برلمانية . كما ان تمثيل العناصر غير التركية كان
كثيراً عن تمثيل العناصر التركية فالترك مثلا لم يكونوا اكثر الا
عدداً في الدولة وكان العرب في الواقع يفوقونهم عدداً بنسبة (٢
وعلى هذا فقد كان مجموع اعضاء مجلس المبعوثان (٢٤٥) مبعوثاً
الاتراك (١٥٠) مبعوثاً ومثل العرب (٦٠) مبعوثاً . اي كان الترك
بنسبة (٥ــ ٢) على رأي جورج انطونيوس . وكان ليبير (Lybyer)
يعتقد العكس من ذلك ، بان هناك تمثيلاً عادلاً لكل القوميات
مؤلف من (٢٦٠) مبعوثاً من بينهم حوالي (١٢٠) تركي و(٧٢)
و(٢٠) كردي والبقية من عناصر الدولة العثمانية الاخرى . وثمة
اخرى تذكر ان المجلس ضم (٢٨٨) مبعوثاً منهم (١٤٧) مبعوثا
الاتراك و(٦٠) مبعوثاً يمثلون العرب .

ليس هنا مجال مناقشة هذه الاحصائيات المتضاربة وذلك لعدم
الاحصائيات الدقيقة لمجموع السكان في الدولة العثمانية في ذلك
وثمة احصائية تقديرية لمجموع السكان في الدولة العثمانية ترجع إ
١٩٠٨م، وفيها ان المجموع لايتجاوز الـ(٢٢) مليوناً من بينهم
من الاتراك و (٥ر١٠) من العرب والبقية من العناصر الاخرى .

حاول بعض المبعوثين العرب تشكيل كتلة برلمانية باسم
العربي ، ووسمت لهذا الحزب بضعة اهداف ابرزها : طلب
الحقيقية مع سائر العناصر ، وجعل اللغة العربية ، لغة التعليم في
الابتدائية والثانوية ورعاية حقوق المواطنين في الولايات العربية
الموظفين في الاقطار العربية من الذين يتكلمون العربية وقد ساهم
لواء الموصل داؤد يوسفاني ومحمد علي فاضل مع شفيق المؤيد مبعوث
وعبد المهدي قاسم مبعوث كربلاء وشكري العسلي مبعوث دمشق

الحميد الزهراوي مبعوث حماة وغيرهم من اجل العمل على اخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ . وقد عهد إلى عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي بوضع نظام داخلي لهذا الحزب لتقديمه إلى رئاسة مجلس المبعوثان والحكومة على ان يباشر بافتتاح الفروع والاندية في العاصمة والولايات العربية بعد التصديق عليه مباشرة ولكن النواب العرب لم يستمروا في مساعيهم بعد ذلك وعدلوا فكرتهم في اللحظات الاخيرة وفضلوا البقاء ضمن الحزب الحر المعتدل الذي تألف في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٠٩ م. وقد اعلن الحزب المذكور بانه سيعمل على استصدار قانون للولايات باقرب وقت مستطاع يكون من شانه ان يؤمن تطبيق قاعدة «توسيع المأذونية وتفريق الوظائف» حسبما نص عليه الدستور . كما سيبذل جهده لكي يؤمن للمجلس الاداري لكل ولاية حق الادارة والاشراف على الشؤون العامة للولاية . وكان من اعضاء هذا الحزب كل من داؤد يوسفاني مبعوث الموصل الذي تولى ادارة جريدة الحزب «تنظيمات» سنة ١٩١١م ونافع الجابري مبعوث حلب ، وسليمان البستاني الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان ورضا الصلح مبعوث بيروت الذي اشرف على اصدار جريدة الحزب الاخرى «اصلاحات» . اما سبب عدول النواب العرب عن تشكيل الحزب العربي ، فيرجع إلى اعتقادهم بان وجودهم داخل الحزب الحر المعتدل سيعمل على زيادة قوة المعارضة للاتحاديين وعدم بعثرتها . الا ان الحزب الحر المعتدل ، سرعان ماذبل وانحل بعد فترة قصيرة وذلك بعد تأسيس جمعية الحرية والائتلاف في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩١١م دون الاتيان بعمل يذكر .

حزب الحرية والائتلاف وانتخابات سنتي ١٩١٢و ١٩١٤م :

ادت الانحارات العثمانية في طرابلس الغرب إلى ازدياد المعارضة في مجلس المبعوثان لوزارة حقي باشا فادت إلى اسقاطها . ولم تكتف المعارضة بذلك بل عمدت إلى تكوين حزب جديد عرف باسم «حزب الحرية

والائتلاف» في ٨ تشرين الثاني ١٩١١م والذي ضم عناصر الحزب ا
المعتدل وجماعة من الاتحاديين المنشقين عن جمعية الاتحاد والترقي
ساهم بعض المبعوثين العرب في تشكيل هذا الحزب الذي ضم عناصر
مختلفة تجمعهم فكرة معارضة الاتحاد والترقي والايمان باللامركزية
نشر الحزب منهاجه السياسي الذي نص على توسيع المأذونية
الوظائف باستثناء مسائل الدفاع الخارجي او مسائل المنافع المشتركة
الولايات مع بقاء الرابطة العثمانية على ان تمنح الولايات استقلالا
على اساس اللا مركزية .

تفاقم الصراع بين الاتحاديين والائتلافيين في مجلس المبعوثان
ازدادت حدة المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي ، مما اضطر الاتحاديين
استصدار ارادة سلطانية لحل مجلس المبعوثان في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩١٢م
على ان تجري الانتخابات خلال ثلاثة اشهر من تاريخ حل المجلس
مجلس المبعوثان الجديد .

اختلفت الانتخابات التي بدأت اواخر كانون الثاني سنة ١٩١٢م
سابقتها وذلك لان الصراع بين جمعية الاتحاد والترقي وحزب الحرية
والائتلاف كان على اشده . وبالرغم من نجاح الاتحاديين في ان
لهم أكثرية برلمانية الا إنهم سرعان ماواجهوا مشاكل معقدة. وقد كان للحركة
العسكرية التي تألفت منذ أيار ـ حزيران سنة ١٩١٢م والتي عرفت
ضباط الانقاذ او «خلاص كار ضابطان» دور كبير في احداث
المشاكل. ومعظم هؤلاء الضباط من الالبان. وقد اعلنوا تمردهم في الرا
ايلي. وتركزت معارضتهم حول عدم شرعية الحكومة ومجلس
الجديد الذي اقحمت جمعية الاتحاد والترقي اعضائها فيه. فطالبوا بانتخابات
حرة، ودعوا الى عدم تدخل الجيش في السياسة واوعزوا الى محمود شو
باشا وزير الحربية بالاستقالة فاستجاب لدعوتهم في ٢١ تموز سنة١٩١٢م
وتألفت وزارة ائتلافية جديدة برئاسة احمد مختار باشا (ثم كامل باشا

بعده) وحل مجلس المبعوثان. واعلنت الحكومة الجديدة عن عزمها لتطبيق مبدأ اللامركزية.

لم تتمكن وزارة ضباط الانقاذ من تنفيذ منهاجها اذ اطاح بها الاتحاديون بانقلابهم العسكري الثاني في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩١٣م بقيادة انور باشا وحكم الاتحاديون منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى بشعاراتهم الثلاثة المعهودة الا وهي: المركزية والطورانية والتتريك. وتقوم الطورانية على تمجيد القومية التركية والتركيز على قرابة الاتراك العثمانيين مع اخوانهم الطورانيين في اسيا الوسطى. واستندت الحركة الطورانية الى سياسة التتريك، وكان لسياسة التتريك وللحركة الطورانية فلاسفتها منهم يوسف آق جوره أوغلي ومن ارائه في هذا الصدد: « ان الذين يرتبطون مع الاتراك بالدين فقط، وليس بالعرق، الا أنهم قد امتزجوا مع الاتراك الى درجة معينة، يسهل صهرهم في المجتمع التركي. اما الذين لم يتولد لديهم شعور قومي فيمكن تتريكهم».

اجرى الاتحاديون انتخابات جديدة لمجلس المبعوثان، فاعلنت نتائجها في ٤ كانون الثاني ١٩١٤م. وقد مارس الاتحاديون فيها اساليب مختلفة من الضغط ليضمنوا اجراء الانتخابات لصالحهم. ولم يمنع هذا من فوز بعض النواب العرب الذين يحملون اتجاهات مغايرة لاتجاهات الاتحاديين وقد ساهم هؤلاء النواب وغيرهم في اثارة بعض القضايا المتعلقة بالامور الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية. ولكن انباء الحرب العالمية الاولى اخذت تطغى على اخبار مجلس المبعوثان، فاصدر السلطان محمد الخامس ارادة سلطانية في اب سنة ١٩١٤م تقضي بتعطيل المجلس نظراً لظروف الحرب.

لم تكن فروع جمعية الاتحاد والترقي في الولايات العربية هي المجال الوحيد الذي برز فيه الاتجاه الطوراني وسياسة التتريك، وانما كانت هناك مجالات اخرى، ومنها سياستهم تجاه التعليم. لقد حرص الاتحاديون على ان يكون التعليم في المدارس باللغة التركية وحدها تطبيقاً لسياسة التتريك

التي تجهوا اليها. وكان من مظاهر الاتجاه القومي التركي المتطرف كذلك هو اهتمام الاتحاديين بالمناطق التي يسكنها الاتراك. كما تشدد الاتحاديون في ان يكون التدريس باللغة التركية بما في ذلك تدريس قواعد اللغة العربية واذا اضطر بعض المعلمين احيانا الى الشذوذ عن هذه القاعدة فانهم يمنعون من ذلك من قبل المسؤولين . وعلى اي حال لايتمكنون من استعمال اي كتاب مالم يكن تركياً . وكثيراً مايحدث ان المعلم للقواعد العربية كان يجهلها ومع هذا يلقي درسه باللغة التركية . وغالباً ماكان الطلاب العرب يرددون الاناشيد التركية دون ان يفقهوا كثيراً من معانيها .

ان سياسة الاتحاديين تجاه التعليم في الولايات العربية ، قادت إلى نفور قسم من الناس واعراضهم عن المدارس الحكومية حيث فضلوا ارسال ابنائهم إلى مدارس الارساليات التبشيرية او إلى الكتاتيب او المدارس الدينية ولهذا فقد كانت المدارس الرسمية مقتصرة على اولاد الموظفين والضباط وبعض الوجهاء الذين كانوا على صلة مستمرة مع دوائر الدولة .

سار الاتحاديون منذ سنة ١٩١٣م وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى بسياسة مركزية اثارت حفيظة القوميات الاخرى في ارجاء الامبراطورية . وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال بردود الفعل القومي بين العرب عن طريق المؤسسات التي مارست نشاطاً ملحوظاً في التوعية القومية عن طريق المطالبة بالحكم المركزي . ومن ذلك نشاط حزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة. اما بالنسبة للقومية العربية ، فقد تمثلت في التنظيمات الحزبية السرية وابرزها جمعيتي العهد العسكرية والعربية الفتاة . ولنقف عند هذه التنظيمات لنكشف طبيعتها وظروفها ومنهاجها ثم نحدد اهم السلبيات التي وقعت فيها الحركة القومية العربية عموماً . ولنبدأ اولاً بحزب اللامركزية الادارية العثماني .

حزب اللامركزية الادارية العثماني :

تأسس اواخر سنة ١٩١٢م في القاهرة . وهدفه السعي لتطوير اسلوب الحكم في اقطار الدولة العثمانية على اساس اللامركزية . وبعبارة اخرى منح كل ولاية قسطاً كبيراً من الاستقلال الاداري حتى تستطيع تنفيذ الاصلاحات الضرورية ومقاومة اي غزو اجنبي في حالة تعذر مساعدة الحكومة المركزية لها خشية ان يتكرر ماحدث في ليبيا وغيرها من اقطار المغرب العربي . وقد كان من اهداف هذا الحزب كذلك ان تكون في كل ولاية لغتان رسميتان : اللغة التركية واللغة المحلية . وان يؤدي شبان كل ولاية الخدمة العسكرية داخل ولايتهم في زمن السلم . وان تخصص واردات الولاية لسد احتياجاتها الفعلية ، وان توسع صلاحيات مجالس الولايات ، وان يستعان قدر الامكان بخبراء اجانب لاعادة تنظيم قوى الشرطة ودوائر العدل والمالية . وقد أكد الحزب على انتهاج الوسائل العلمية والسلمية لتحقيق اهدافه .

كما ظهرت في بيروت اواخر سنة ١٩١٢م، بعد تأسيس حزب اللامركزية جمعية اصلاحية باسم «لجنة الاصلاح» تألفت من ستة وثمانين عضواً من جميع الأديان ، وكانت خطتها تهدف إلى التطبيق العملي للمبادئ التي نادى بها دعاة اللامركزية . وقد اعلنت لجنة الاصلاح منهجها في اواسط شباط سنة ١٩١٣م ونشرته على نطاق واسع في الشام والعراق . فعمدت السلطات المحلية الى مطاردة بعض اعضائها . غير انها اضطرت ، تحت ضغط المظاهرات التي عمت بلاد الشام ان تطلق سراح القادة المعتقلين وتعلن عزم الحكومة على القيام بالاصلاحات على اساس اللامركزية .

اصدر الاتحاديون في ٥ آيار سنة ١٩١٣م قانوناً جديداً للولايات جاء على النقيض تماماً مما هدفت اليه مناهج لجنة الاصلاح وحزب اللامركزية الادارية العثماني . وقد عده الكثيرون خطوة مقنعة نحو المزيد من المركزية وزيادة وطأة استانبول على الولايات العربية وتقوية قبضتها على الحرية .

واجه القانون الجديد ، بعد نشرة مقاومة شديدة في الولايات العربية. فأخذت الصحف تندد به . وكتبت جريدة صدى بابل البغدادية في عددها الصادر في ٢٥ آيار سنة ١٩١٣م تقول : «أي قدرة تقدر على افهام اخواننا الاتراك ، ان العرب في الدولة هم اخلص العناصر واصدقها واشدهم تمسكاً بالجامعة العثمانية . ان اخواننا يعلمون ذلك ولكنهم لايريدون ان يعترفوا ، يريدون ان يتجاهلوا الاسباب ». وقد عقدت الاجتماعات في الولايات العربية ، وتقرر فيها الاحتجاج على القانون المجحف بحقوق الوطن والمواطن. وابرق عدد من المثقفين في الولايات العربية إلى استانبول يطالبون عدم تطبيق القانون باعتباره غير كاف لاصلاح ولاياتهم .

لقد ارتبطت الحركة الاصلاحية ، بصورة خاصة ، بحزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة ، وكان من مؤسسيه رفيق العظم وحقي العظم ورشيد رضا واسكندر عمون ، وعبد الحميد الزهراوي وداؤد بركات . وقد ذكر عبد الغني العريسي احد القوميين العرب الذين اعدمتهم السلطات العثمانية فيما بعد ، في اعترافاته امام المجلس العرفي العثماني في عاليه بلبنان : ان رئيس الائتلافيين صادق بك كان يتردد على رفيق العظم وجرى بينهما شبه اتفاق بحيث يكون الحزبان عوناً على ازاحة الاتحاديين من الحكم .

اسست جمعيات اصلاحية مماثلة لجمعية الاصلاح في بيروت ، في الموصل وحلب ودمشق والبصرة . كان قسم منها فرعاً لحزب اللامركزية الادارية العثماني . اما القسم الآخر فكان جمعيات مستقلة نسقت نشاطاتها مع الحزب المذكور .

كانت حركة الوعي القومي في سوريا اقدم عهداً ، واقوى تنظيما واكثر انصارا بالقياس الى الاقطار العربية الاخرى . ولقد سبقت ، كما رأينا ، حركة الوعي هذه نهضة فكرية ، ولما كان لكل حركة ان تضمن لنفسها واقعاً تعمل من خلاله ، فقد اثمرت تلك النهضة وبدأ صداها يترك اثره على الاوضاع السياسية . واذا كانت حركة الوعي القومي قد اتخذت

في سوريا شكلاً منظما جلب انتباه المؤرخين ، فليس معنى هذا انه لم تكن هناك في الولايات العربية الاخرى عوامل تعمل عملها في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية تفاعلت مع بعضها وادت الى ظهور الوعي القومي .

ان الاتحاديين بدلاً من ان يحققوا للعرب مطامحهم القومية ، اتجهوا منذ سنة ١٩١٣م وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى الى انتهاج سياسة مركزية متطرفة اثارت حفيظة القوميات الاخرى ومنهم العرب . هذا فضلاً عن اتباعهم سياسة تفضيل الاتراك على غيرهم من عناصر الدولة وقد استخدموا الارهاب في فرض سياستهم . كما الغيت الجمعيات العربية العلنية ، وكان لفشل الاتحاديين في الدفاع عن الاقطار العربية ضد الغزو الاوربي الاستعماري اثر في احساس العرب بضرورة بعث كيانهم الخاص المتميز ، فبدأوا يجهرون برفضهم للسيطرة العثمانية . ثم لجأوا الى تنظيم انفسهم في جمعيات واحزاب سياسة سرية لمواجهة الاخطار الجديدة . ولعل من ابرز تلك الجمعيات جمعيتي العهد العسكرية ، والعربية الفتاة.

جمعية العهد العسكرية :

اضطر الاحرار العرب الى العمل السري بعد أن ازداد اضطهاد الاتراك لهم ولعل من ابرز الجمعيات السرية التي تأسست خلال المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الاولى . جمعية العهد العسكرية . تشكلت في استانبول بزعامة عزيز علي المصري وهو ضابط عربي في الجيش العثماني وبعض الضباط المتحمسين للقضية القومية العربية امثال سليم الجزائري وطه الهاشمي ونوري السعيد وجميل المدفعي وغيرهم . ولايوجد تاريخ دقيق لنشأتها. فقد ذكر عزيز علي المصري بانه في سنة ١٩١٢م اسس جمعية العهد العسكرية . بينما حدد جورج انطونيوس بداية سنة ١٩١٤م تاريخاً لنشأتها . اما أمين سعيد فقد وضع اليوم الثامن والعشرين من تشرين الاول ١٩١٣م تاريخا لتأسيس هذه الجمعية .

سميت الجمعية بهذا الاسم . لان انتماء اي عضو اليها يعد بمثابة «عهد» بينه وبين الله على خدمة الوطن . وكان هدف الجمعية الحصول على الاستقلال الداخلي للاقطار العربية . ويقول نوري السعيد : « بان هدف الجمعية كان منحصراً في اصلاح الحال على اساس النظام الاتحادي (فيدراسيون)... ولم يفكر احد منا في الانفصال عن الامبراطورية العثمانية، وانما كان تفكيرنا منصبا في الحصول على ادارة عربية محلية، ولغة عربية رسمية على ان نشترك والعنصر الترك في ادارة سياسة الدولة العامة...». كان منهاجها نفس منهاج الجمعية القحطانية التي كشفت السلطات الاتحادية امرها. والجمعية القحطانية اسست سنة ١٩٠٩م في استانبول بزعامة علي المصري ونص منهاجها على ان تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة تصبح جزءاً من امبراطورية تركية عربية.

لقد حرص عزيز علي المصري على ان تقتصر جمعية العهد على العنصر العسكري وحده. لذلك لم يقبل فيها من المدنيين غير اثنين احدهما الامير عادل ارسلان احد الاعضاء الاوائل في الجمعية السابقة. وقد يكون من المناسب الاشارة الى ان الضباط العراقيين احتلوا مكانة مهمة في مجالس جمعية العهد وقد انشأوا بين اواخر سنة ١٩١٣م وبداية سنة ١٩١٤م فروعاً للجمعية في الموصل وبغداد. ولربما يرجع ذلك الى ان العراق شهد منذ اواخر القرن التاسع عشر، تأسيس العديد من المدارس العسكرية (الرشدية والاعدادية).

قررت السلطات العثمانية بعد ان اصبح لجمعية العهد نشاط كبير في استانبول وتسربت الاخبار عن نشوء فروع لها في بعض المدن العربية وانها لقيت تأييداً من الضباط العرب، ان تقاوم ذلك كله، وتعمل على تفريق رجال الحركة وتبعثرهم قبل ان يشتد ساعدهم. لهذا عقدت في يوم ٢ كانون الثاني سنة ١٩١٤م اجتماعاً خاصاً في وزارة الحربية حضره الصدر الاعظم سعيد حليم باشا ومحافظ استانبول العسكري جمال باشا (قبل تعيينه وزيرا للبحرية). ومدير الامن العام عزمي بك. وقد درست في هذا الاجتماع

التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية عامة، وجمعية العهد خاصة. واتخذت عدة قرارات اهمها: تولية القيادة في الولايات العربية الى الضباط الاتراك، واقصاء الضباط العرب، والاستغناء عن خدمات بعضهم، قدر الامكان وعهد الى جمال باشا تنفيذ ذلك. والى شيء من هذا القبيل اشار جمال باشا في مذكراته حين اتهم الضباط العرب، العاملين ضمن الفرقة العربية المرابطة في شبه جزيرة غاليبولي، بانهم صرفوا اهتمامهم عندما كانت الحكومة العثمانية مشغولة بالحرب البلقانية سنة ١٩١٣م الى «تعضيد وسائل الابتزاز السياسي التي قام بها (دعاة القومية من العرب) في استانبول بدلا من القيام بواجبهم العسكري». وقد يدل هذا على ان الاتحاديين علموا بوجود حركة عربية بين الضباط العرب، فقاموا في ٩ شباط ١٩١٤م باعتقال الرائد عزيز علي المصري. ثم جاءت الحرب العالمية الاولى لتقلل من نشاط الجمعية. فكان من الطبيعي ان يتناثر اعضاؤها.

جمعية العربيـة الفتاة :

وهي جمعية سرية اسسها في باريس سنة ١٩١١م مجموعة من الشبان العرب الذين كانوا يدرسون هناك، منهم عوني عبد الهادي وجميل مردم وعمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وتوفيق الناطور ورستم حيدر. وهدفها تحقيق استقلال الاقطار العربية وتحريرها من النير العثماني. وفي سنة ١٩١٣ نقل مركزها الى بيروت، ثم في السنة التالية نقل الى دمشق حيث بلغ عدد اعضائها المائتين. وهي ابرز الجمعيات السياسية العربية على الاطلاق، امتازت بوضوح اهدافها، ووعي اعضائها واخلاصهم ودقة انتظامها. وقد بقي سر هذه الجمعية مكتوماً حتى النهاية، ولم يعرف سرها الا بعد ان اعلنت الحكومة العربية في دمشق سنة ١٩١٨ م. ومن آيات البطولة التي اتصف بها اعضاؤها ان احدهم فضل الانتحار على الاعتراف، وفضل آخر المشنقة على افشاء سر الجمعية. وقد كان لهذه الجمعية، كما سنرى، دور كبر في القضية العربية خلال الحرب العالمة الاولى. وتشير

المؤرخة الفلسطينية الدكتورة خيرية قاسمية الى انها عثرت بين اوراق محب الدين الخطيب على كراس يتضمن منهج الجمعية . ومما جاء فيه انها تأسست «من قبل فريق من النابتة العربية للقيام بما تفرضه عليهم الوطنية ليتعزز بهم مركزها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي حسب ماتتطلبه طبيعة الوجود » وكذلك على منشور سياسي للجمعية بعنوان الصرخة الاولى يطالب بالاصلاح والاستقلال الاداري وعليه ختم الجمعية . كما اطلعت على رسالة من عارف الشهابي في ١٨ اذار سنة ١٩١٤م الى محب الدين الخطيب يعلمه بقرار الجمعية ان يكون شعارها الالوان الثلاثة التي تمثل التاريخ العربي : الاخضر والابيض والاسود .وقد اقترح محمد المحمصاني في رسالة اخرى في ٢٥ تيسان ١٩١٤ م بان يعمل ختم للجمعية يجمع النجاة والصقر .

المؤتمر العربي الأول في باريس ١٩١٣م :

زاد الاتحاديون من تعسفهم واضطهادهم للحركة القومية العربية ، الامر الذي دفع قادة هذه الحركة إلى نقل نشاطهم إلى خارج الدولة العثمانية انطلاقاً من الحاجة في تعريف الرأي العام العالمي بمطالب العرب القومية ورغبة منهم في توحيد جهود الشباب العربي ونضالهم . لذلك انبثقت في ذهن فريق من المثقفين والطلاب العرب الذين يدرسون في باريس . وهم عبد الغني العريسي وتوفيق فايد ، من بيروت وعوني عبد الهادي في نابلس ومحمد المحمصاني في بيروت وجميل مردم من دمشق ، وتوفيق السويدي من بغداد ، فكرة عقد مؤتمر في باريس لمحاولة توحيد كافة القوى العربية بغية ممارسة ضغط مشترك على الحكومة العثمانية والعمل على نشر اهداف القضية العربية خارج الولايات العربية . وقد تألفت لجنة تحضيرية للمؤتمر مؤلفة من عبد الغني العريسي وعوني عبد الهادي ومحمد طبارة و

مردم ومحمد المحمصاني وندرة المطران وشكري غانم وشارل دباس وجميل المعلوف تأخذ على عاتقها الاتصال بالمنظمات القومية والشخصيات العربية البارزة .

لقد كانت اولى خطوات اللجنة التحضيرية اتصالها بحزب اللامركزية في القاهرة وعرضها عليه تبني المؤتمر ورئاسته لانه كان يضم رجالا بارزين في الحركة العربية القومية. كما ان الاصلاح الذي سيطالب به المؤتمر سيقوم على منهج الحزب . وقد كانت دعوة حزب اللامركزية تتردد انذاك في كل ارجاء الوطن العربي ورأت اللجنة ان ذلك من عوامل نجاح المؤتمر والوصول به الى نتائج ملموسة. استجاب كثير من قادة الحركة العربية للنداء وتوجهوا الى باريس وحضروا المؤتمر ومن ابرز الذين حضروا المؤتمر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية : اسكندر عمون ، وعبد الحميد الزهراوي نائب حماة في مجلس المبعوثان ، والشيخ احمد حسن طبارة صاحب جريدة الاصلاح اليومية في باريس ، والدكتور ايوب ثابت سكرتير الجمعية الاصلاحية في بيروت ، وتوفيق السويدي طالب عراقي يدرس القانون في باريس وسليمان عنبر تاجر عراقي وجميل مردم، طالب سوري يدرس القانون في باريس.

اذاعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر بياناً الى الامة العربية.جاء فيه ان عقد المؤتمر جاء نتيجة لما يجري في الاقطار العربية من احداث ولكي «نثبت للعالم اننا امة متماسكة ذات وجود حي لاينحل ومقام عزيز لايضام وخصائص قومية لاتنزع ومنزلة سياسية لاتقرع ... اننا نصارح الدولة العثمانية بان اللامركزية قاعدة حياتنا ، وان حياتنا اقدس حق من حقوقنا ، وان العرب شركاء في هذه المملكة ، شركاء في الحرية». ثم وجه البيان نداءه الى العرب قائلاً : اننا ندعو كل من يخفق قلبه لامة العرب صغيرا او كبيرا ان يلبي داعي الوطن لاسيما ارباب الزعامات في مقاعد الجمعيات فعليهم نعتمد وإليهم نتجه...». وقد حددت اللجنة الموضوعات التي سوف يبحثها المؤتمر ومن ابرزها : مناقشة حقوق العرب في الدولة العثمانية وضرورة اصلاح اوضاعهم.

عقد المؤتمر اربع جلسات رسمية في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية بين ١٨ — ٢٣ حزيران سنة ١٩١٣م، وانتخب عبدالحميد الزهراوي رئيساً. وقد حضر المؤتمر حوالي (٢٥٠) مندوبا يمثلون الاقطار العربية. وتلقى برقيات تأييد من شخصيات ومنظمات قومية عديدة في الوطن العربي. وقد اتخذ المؤتمر عددا من المقررات، اكدت ضرورة الاعتراف بحقوق العرب السياسية الكاملة، وعلى ان يكون لهم دور في ادارة الدولة وان يفسح المجال لهم لتحقيق امانيهم القومية، وان تكون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية، وان تكون الخدمة العسكرية العربية محلية في الولايات العربية الا في الظروف الاستثنائية. كما اكدت ضرورة الدفاع عن الاقطار العربية من اي عدوان خارجي. وقد ناقش المؤتمرون قضية مستقبل الدولة العثمانية، واشتد الجدل حولها، ولكن المؤتمر اكد على وحدة الدولة، شرط الاعتراف بحقوق العرب الكاملة، كشركاء فيها، والحق بمقررات المؤتمر شروط نصت على ان الاعضاء المنتمين إلى الجمعيات العربية يمتنعون عن قبول اي منصب حكومي في الدولة العثمانية الا بموافقة جمعياتهم. كما ان مقررات المؤتمر ستكون بمثابة البرنامج السياسي للعرب القوميين في تعاملهم مع السلطات العثمانية. وسوف لا يسمح لاي عربي يرشح نفسه للانتخابات الا اذا تعهد بتأييد هذا البرنامج والسعي لتنفيذه.

ان مقررات المؤتمر المتعلقة بالدعوة الى الاصلاح والمساواة كانت من القوة، بحيث اجبرت الحكومة العثمانية على اعلان قبولها لتلك المقررات او التظاهر بقبولها. فقد ارسلت جمعية الاتحاد والترقي سكرتيرها العام مدحت شكري بك الى باريس للتفاوض مع رجال المؤتمر في مطالبهم، وفتحت ابواب المفاوضات ووقع مدحت شكري بك اتفاقا مع عبد الحميد الزهراوي وافق فيه تقريبا على معظم مقررات المؤتمر. وصادق السلطان محمد رشاد في ٨ آب ١٩١٣م على الاتفاق وصدر مرسوم سلطاني بذلك. ولكن اتضح للعرب بما لايقبل الشك ان الاتحاديين ماكانوا مخلصين في نواياهم،

اذ سلطوا على المؤتمر اقلام انصارهم من قوى الزعامة العثمانية، وخاصة الشيخ اسعد الشقيري والدكتور محمد الاسير وشكيب ارسلان ومحمد حبيب العبيدي والشيخ عبد العزيز جاويش وغيرهم. فهاجموا المؤتمر، واتهموا اعضائه بالخيانة، وقالوا ان غاية اولئك تسليم البلاد الى الاجانب والقضاء على الدولة والاسلام، وطالبوا ابقاء الحال في الولايات العربية على ماهي عليه. ولم يكتف الاتحاديون بذلك، بل اتخذوا جملة من المقررات السرية في كانون الثاني سنة ١٩١٤م منها: مقاومة دعاة الانفصال عن الدولة العثمانية والغاء الجمعيات العربية كلها ومراقبة نشاطاتها وابعاد الضباط العرب عن استانبول وعددهم انذاك يصل الى (٥٠٠) وتولية القيادة في الولايات العربية الى الضباط الاتراك والاسراع في تنفيذ سياسة التتريك. وتعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في الاقطار العربية ومطاردة العرب الذين يعملون ضد الاتحاديين.

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٤م بجانب دول الحلف المركزي وذلك تنفيذا للمعاهدة السرية المعقودة بينها وبين المانيا في ٢ آب سنة ١٩١٤م. هذا مع العلم ان الاستعدادت العسكرية العثمانية قد بدأت قبل اربعة اشهر تقريبا من دخولها الحرب رسميا. اذ شرعت باعلان النفير العام في ٣ آب سنة ١٩١٤م. وقد خلقت حادثة ضرب الموانيء الروسية في البحر الاسود من قبل القطعات الحربية العثمانية في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩١٤م الموقف الذي ادى الى دخول الدولة العثمانية الحرب. فقد اعلنت روسيا الحرب عليها في ٤ تشرين الثاني وتلا ذلك اعلان حرب مشابهة من جانب بريطانيا وفرنسا بعد يوم واحد.

أرسلت السلطات الأتحادية بعد دخولها الحرب مباشرة ، جمال باشا وزير البحرية إلى سوريا وكلفته بمهمة عسكرية ، على رأس الجيش الرابع تستهدف القيام بهجوم على القوات البريطانية في قناة السويس والقضاء على تحركات العناصر العربية القومية هناك . وقد كان لهزيمة الجيش التركي